

الإستراتيجية العثمانية في شمال أفريقيا في القرن السادس عشر

الأستاذ المساعد الدكتور
جاسم محمد شطب
جامعة كربلاء - كلية التربية

المقدمة

يبقى الاهتمام بالدراسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في التاريخ العثماني يحتل مكان الصدارة لدى الباحثين من المهتمين بتاريخ المناطق التي خضعت للهيمنة العثمانية في مختلف المراحل ومنها منطقة شمال أفريقيا ، بسبب قربها من أوربا التي ملكت في التاريخ الحديث محركات الصراع التاريخي ليس في المناطق العربية بل في العالم، بعد أن نفضت عنها غبار الماضي ، وصارت تتزعم التطورات الاقتصادية والسياسية بالمشاركة مع الدولة العثمانية، التي نشأت في مطلع العصر الحديث، وتحولت إلى امبراطورية عالمية تمتد على ثلاث قارات سريعا، وأصبحت المثلة الأبرز لكل التوجهات الاسلامية في مواجهة التوجهات المسيحية المتطرفة ، لاسيما تلك التي رافقت حركة (الاسترداد) القومية في شبه جزيرة إيبريا وملاحقة المسلمين(المورسكيين) إلى أقاليم شمال أفريقيا المسلمة ، الأمر الذي أدى إلى ظهور آل بربروسا الذين جرجروا الدولة العثمانية إلى حوض البحر المتوسط الغربي(التيراني) في مواجهة الإيطاليين والإسبان والبرتغاليين ، ومقارعة القوة بالقوة .

لقد كسب آل بربروسا جولة القرن السادس عشر من الصراع مع أوربا المسيحية فتمكنت القوى الإسلامية من طرد القوى المسيحية من شمال افريقيا ، وسيطرت البحرية العثمانية بشكل مطلق على البحر المتوسط طيلة القرن اللاحق قبل أن يظهر التراجع التدريجي في الأداء الوظيفي للدولة العثمانية بتراجع نظام الإقطاع العسكري الذي قامت على وفقه النظم العثمانية .

الأوضاع الداخلية في شمال أفريقيا في مطلع القرن السادس عشر

يمتد الشمال الأفريقي على طول الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط من سبته وطنجة المطلتين على مضيق جبل طارق حتى مدينة مصراتة إلى الشرق من مدينة

طرابلس ، وهو على وجه التقريب السواحل العربية المواجهة للسواحل الإيطالية والفرنسية والاسبانية ، أو ما أصطلح على تسميته بالسواحل الجنوبية للحوض الغربي من البحر المتوسط. وتمتاز هذه المناطق باعتدال مناخها الملائم للنشاط البشري وغزارة أمطارها وكثرة خلجانها وملائمتها لقيام موانئ لرسو السفن، مما أكسبها حركة تجارية نشطة، كان فيها للبنادقة والجنويين وأهل بيزا وجنوب فرنسا محل الصدارة وقامت فيها شركات تجارية صغيرة في نهايات العصور الوسطى،وعقد سكان السواحل الشمالية والغربية اتفاقات مع سكانها في مدن طرابلس وتونس والجزائر والمغرب الأقصى .

كما اشتغل سكان هذه الأصقاع كوسطاء تجاريين بين السواحل الشمالية للبحر المتوسط وسكان جنوب الصحراء في تجارة كانت مستمرة منذ قرون لنقل مصنوعات أوربا الى جنوب الصحراء ونقل الذهب والعبيد والجلود والحيوانات الحية من جنوب الصحراء الى أوربا . كما لم تنس هذه المناطق حظها في المساهمة في العملية التجارية فضلاً عن دورها في الوساطة التجارية**"وكانت تونس غنية بالأثاث والمعدات،ولكن طرابلس تفوقت بالذهب والفضة واللآلئ وكل السلع بفضل التجارة وكان فيها مائة وخمسون نولاً لصناعة أقمشة الحرير ومشاغل لصناعة الشيلان وغيرها من المنسوجات الرفيعة"**[1] وكانت الجزائر مدينة صغيرة تقع على ميناء هادئ صغير مزدحم بمختلف أنواع السفن ، وكان معظم سكانها يشتغلون بالتجارة ويشاهد في أسواقها الذهب المكسيكي والفضة البيروية والماس الهندي وحرير الشرق ومختلف انواع الأقمشة الشرقية الأخرى والأرزاق ومختلف البضائع والثروات ، التي كانت تأتي بتدفق دائم تحملها سفن تعود لمختلف الدول تدخل وتخرج بشكل مستمر من والى الميناء،كما يشاهد الرقيق من كل الأجناس. لذا أصبحت هذه المدينة شأنها في ذلك شأن المدن الأخرى موئلا للرياس والمرتدين عن المسيحية والباحثين عن الثراء والمغامرين متعددي الجنسيات والأجناس وبإمكان أي من هؤلاء أن يحقق الربح الذي يريده ، **"وجمع المال هناك أسهل وأسرع من صرفه" (٢) .**

ويشير محمد بن الحسن الوزان (ليو الأفريقي)، إن تجارة السودان كانت النشاط الأبرز في اقتصاديات الشمال الأفريقي من سواحل المحيط الأطلسي في الغرب حتى طرابلس في الشرق، مؤكداً وجود أكثر من عشرين مدينة مهمة كانت مراكز لهذه

التجارة. وكان دور تجار السواحل دوراً مركباً في التعامل المباشر مع التجار القادمين عن طريق البحر الذين لا يجوز بل لا يسمح لهم التقدم لأبعد من مدن السواحل في أفريقيا ، ومع أولئك القادمين من أقاليم جنوب الصحراء، الذين لا يجوز بل لا يسمح لهم التقدم لأبعد من مدن ومراكز الصحراء مثل تمبكت Tumbuktوتادميكا Tadmekka(السوق) وتاكيدا Takedda وجاوا Jawa(عاصمة إمبراطورية السونگاي)ومرزق وغات وتغازة، وكانت البضائع الأوربية أو تلك المصنوعة في بعض مدن السواحل الأفريقية والدولة العثمانية ، تستبدل بالدرجة الأولى بالذهب والرقيق والزباد (مادة عطرية تستخرج من سنور معين) وبعض التوابل(٣).

رافق هذا الثراء الواسع في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر تحلل الأنظمة السياسية في الشمال الأفريقي وتخلفها عن موكب الحضارة التي صارت تنتقل بالتدريج إلى أوربا، وقيام أنظمة محلية إقطاعية غالباً ما كانت في حالة صراع مع بعضها البعض(٤) . ففي تونس وصلت الأسرة الحفصية إلى درجة بالغة من التردي الإقطاعي والضعف ، وتعدت المؤامرات والمكائد بين أبنائها نطاق تونس عندما استعان بعضهم بالأسبان كما فعل السلطان أبوعبد الله محمد الحفصي(٥) . وبلغ التفكك السياسي مداه في المغرب الأقصى ، إذ تنازعت حكم البلاد أسرتان وهما الأسرة الوطاسية في فاس والأسرة السعدية في مراكش . وكان شائعاً تماماً بين الأسر الحاكمة في الشمال الأفريقي التعاون مع الأسبان والبرتغاليين ضد الأسر الأخرى المناوئة كما فعلت الأسرتان المغربيتان(٦) . ولم تكن الحال بأفضل منها في الإقليم الأوسط حيث توزعت العائلات حكم هذا الإقليم ، فحكم آل التومي مدينة الجزائر وما حولها وحكم بنو زيان الذين بلغت دولتهم أرذل العمر مدينة تلمسان،على حد تعبير محمد حجي ، ولم يعد نفوذها يتجاوز رياض المدينة وتكونت نتيجة لذلك مجموعة من الإمارات القبلية في شرق المغرب الأوسط وجنوبه مثل إمارة أحمد بن القاضي بجبل كوكو(سوق الأربعاء) إذ لا تهتم بغير التطاحن بينها(٧)..أما مدينة طرابلس وما جاورها فقد كانت تحت السيادة الإسمية للدولة الحفصية(٨) .

في مقابل ذلك ظهر عدد من الدول القوية الموحدة في أوربا نفضت عنها غبار الماضي مثل فرنسا وإمبراطورية النمسا وإنكلترا وأسبانيا والبرتغال التين بذلتا جهوداً

مضنية في سبيل تحررهما وتوحدهما(٩) ، وكان طرد المسلمين من غرناطة آخر معاقلهم في أسبانيا في عام ١٤٩٢ إحدى أهم نتائج هذا التوحد ، وأدت الكنيسة الكاثوليكية فيهما دورا رئيسياً في طرد المسلمين واليهود منهما وإرهابهم تحت ألوية الصليب (١٠)، الأمر الذي أدى الى نزوح أعداد كبيرة من المسلمين واليهود إلى أقاليم شمال أفريقيا تخلصاً من الاضطهاد . وكان ذلك سبباً في تعميق الأزمات الاجتماعية التي تعاني منها هذه الأقاليم أصلاً. ولم تتوقف هاتان الدولتان عند هذا الحد ، بل لاحقت قواتهما المسلمين واليهود (أعداء الصليب) الفارين منهما الى الشمال الأفريقي كإجراء وقائي استباقي ضد عودتهم مرة أخرى إلى شبه جزيرة إيبريا. فقد جاء في وصية إزابيلّا الكاثوليكية ملكة قشتالة **"إنني أرجو ابنتي﴿جوان الطائشة﴾والأمير زوجها ﴿فيليب الجميل﴾، وآمرهما بإطاعة وصايا أمّنا المقدسة طاعة تامة، وأن يكونا حماتها والمدافعين عنها حسبما يقتضي واجبهما وإلا يكفا عن متابعة فتح أفريقيا ومحاربة الكفار في سبيل الأيمان . . . (١١).وفي نفس المعنى قال أحد الضباط البرتغاليين "إن الشباب البرتغالي كان يعتقد إن المسلمين إذا التجأوا من شبه جزيرة الأندلس﴿إيبريا﴾الى الشمال الأفريقي ،فإن الواجب يتحتم على المسيحيين ألا يتركوهم ينعمون بالمقام بل أن يتعقبوهم حيث وصلوا"(١٢).**

كان الاضطهاد العنيف الذي تعرض له مسلمو الأندلس الذي أدى بهم الى النزوح الجماعي من أسبانيا والبرتغال، كما كانت المواعيد التي قدمت لمن بقي منهم في أسبانيا بالدعم العسكري ،لاسيما من مرابطي و(قراصنة) الشمال الأفريقي ، سبباً لثورتهم في عام ١٥٠٠في منحدرات سييرانيفاداSierra Nivada . و ككل مرة كان العقاب الإسباني قاسياً ، فقد دعا الراهب خمينس دي سسنروس Ximenes de Cisnros أسقف طليطلة الوثيق الصلة بالملك فرديناند الأراگوني Ferdenand de Aragon (الكاثوليكي) الى تعميد من بقي من المسلمين واليهود بالقوة ومن يرفض التعميد كان يهجر إلى شمال أفريقيا (شواطئ القرصنة) (١٣) ، كما دعا هذا الراهب إلى احتلال شواطئ شمال أفريقيا المتوسطية بكونه حاكماً لإقليم كاستيليا Castilliaالإسبانية، وأشار على الملك الذي تبنى مشروعه ، بذلك ، وأصدر بدوره أمراً ملكياً الى الكونت بدرو دي نافار Pedro de Navarr **"إننا إذا ما أردنا ان نحافظ على وجودنا في أفريقيا**

فإنه يتحتم علينا أن نحتل مدن وهران وبجاية وطرابلس " (١٤) . وبناء عليه استطاع هذا الكونت على رأس جيش أسباني أن يحتل مينائي تلمسان والمرسى الكبير في عام ١٥٠٥، ثم وهران في عام ١٥٠٨ وطرابلس وبجاية في عام ١٥١٠ (١٥). كما احتل بدرو دي نافار أيضاً صخرة ذات موقع متميز قبالة مدينة الجزائر، وبنى فيها الأسبان قلعة حصينة جداً،أصبحت من جرائها الجزائر تحت رحمة قذائف المدفعية الأسبانية (١٦) .

كان العنف والإرهاب والتنصير القسري الموجه ضد بقايا مسلمي الأندلس دفع بأعداد كبيرة منهم إلى النزوح إلى شمال أفريقيا واستيطان مدنه وقراه ومزاولة صناعة وتجارة الحرير وصناعة السفن،لاسيما تلك التي كان (القراصنة) يستعملونها في جهادهم ضد الشواطئ الأوربية وزراعة المحاصيل المهمة مثل أشجار التوت لارتباطها بتربية دودة القز وإنتاج الحرير . وتمكنوا بذلك من تعويض بعض خسارتهم لأموالهم في أسبانيا ، وبلغ عدد منازلهم ما يقرب من مائتين وألف بيت في شرشال وحدها(١٧) ، كما استقروا في مدينة الجزائر، حيث أصبح لهم حي خاص بهم يدعى "فحص الثغريين" وفي تنس ومستغانم ودلس وبجاية وعنابة وفاس وتونس وطرابلس ومختلف مدن الشمال الأفريقي، وحيثما ذهبوا كانوا يجدون أنفسهم في جماعة واسعة من المهاجرين الذين جاءوا حديثاً من أسبانيا(١٨) . فعزز ذلك عدم التجانس وتعميق المشكلات الاجتماعية التي كانت تعاني منها هذه الدول، كالخلاف بين سكان الجبال والسهول ، وسكان ألأرياف والصحاري ، كما عززوا حركة(القرصنة) المستشرية في البحر المتوسط ،التي كانت الأمم تتبادلها وتعود بإيرادات ضخمة على خزائنها ، ولم تكن حكراً على المسلمين المنكوبين بأوطانهم ودينهم . لذا أطلقوا عليها تسمية "حركة الجهاد البحري" . ويبدو إنهم كانوا محقين في ذلك ، ووصف قراصنة الجزائر بأنهم أكثر قراصنة البحر المتوسط إثارة للرعب ، وليس هناك ما هو محرم على المصادرة والسلب ابتداءاً من البضائع المصنعة والحبوب والمعادن الثمينة والسفن وانتهاءً بالإنسان(١٩) .

كان نشاط القرصنة محط أنظار أخلاط مختلفة من الناس ، فمنهم من جاء الى السواحل الجنوبية للبحر المتوسط لأغراض الجهاد ضد(أعداء الدين)من الأسبان والبرتغاليين ، ومن بين هؤلاء العلماء من ذوي العواطف الدينية المتقدة ورجال الطرق الصوفية المنتشرة هناك كالقادرية مثلاً ، ومنهم المرابطون الذين لا يعرف أحد من أين

جاءوا ، إلا أنهم موجودون في مجتمع شمال أفريقيا ، ومنهم من جاء باحثاً عن الثراء السريع " **فشمال أفريقيا هي أرض الثراء بدون جهد وجمع الأموال بدون عرق** " . وكان نشاط القراصنة ذو الطابع الاقتصادي الواضح ، يحمل في طياته شعوراً دينياً متقداً سواء أكان إسلامياً أم مسيحياً ،أخذ بعد ١٤٩٢م طابعاً ثأرياً ضد المسيحيين رداً على سقوط غرناطة واضطهاد المسلمين وتهجيرهم، ذلك النشاط الذي ظل الموريسكيون يذكونه ضد عموم المسيحيين ولاسيما مسيحيي أسبانيا والبرتغال(٢٠). في هذا المحيط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ظهر الإخوة بربروسا(ذوو اللحى الحمراء) الذين مثلوا ،لاسيما الريس خضر(خيرالدين) في وقت ما الاستراتيجية العثمانية في شمال أفريقيا ،فمن هؤلاء؟.

لا يدعي كثرٌ من الباحثين وجود علاقة من نوع ما ، بين الدولة العثمانية أو السلطان العثماني وصانع الفخار المسيحي اليوناني الأصل من جزيرة مديللي يعقوب المتزوج من مسيحية، فأنجبت له أولاده الأربعة، الذين من المنطقي بل من المرجح إنهم ولدوا على الديانة المسيحية وتحولوا إلى الدين الإسلامي، كما كان يفعل جمع غفير من (المهتدين) من مختلف الأمم المسيحية (٢١)، ذلك إن المساواة والبساطة والعدل والأممية التي كان يدعو إليها الإسلام جعلته الدين الأكثر قبولاً وحيوية . إذ يجد المسيحي في ظل الدولة العثمانية ، وكانت الدولة الأقوى في العالم طيلة القرنين الخامس عشر والسادس عشر، أفق أوسع لنشاطه الاقتصادي أو الفكري أو العسكري بعيداً عن ظلامية أوربا وتعصبها وطبقيتها، ولا يقلل من شأن الفرد كونه تحول الى الإسلام، لاسيما إذا كان هذا التحول بمحض إرادته (٢٢).

النفوذ العثماني في شمال أفريقيا

كان نشوء الدولة العثمانية وتوسعها وتطورها ، الظاهرة الأبرز والأعظم في عموم الشرق منذ سقوط النظام والحضارة في بغداد على يد المغول في منتصف القرن الثالث عشر ، وعدت امتداداً إسلامياً لآبد منه عندما عبرت هذه الدولة عن كل التوجهات الفكرية والجهادية الإسلامية في مقارعة أوربا الصليبية فمن هم العثمانيون ومتى تأسست دولتهم وماهي الأسس الفكرية والتنظيمية التي قامت عليها ؟ .

تأسست الإمارة العثمانية في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر من مقاتلي مجموعة من القبائل التركمانية القوية التي تقدمت من أواسط آسيا إلى بلاد فارس ثم إلى شرق الأناضول تحت ضغط المغول، على أسس جهادية بكونها إمارة لـ"الجهاد المقدس "ضد أعداء الإسلام ممثلين بالإمبراطورية البيزنطية التي كانت تعيش في مرحلة انحسارها النهائي تحت تأثير الصليبيين في الحملة الرابعة وحلفائهم في دولة طرابزون . وكانت هذه الإمارة التي أخذت اسمها من أسم مؤسسها عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه ، نتاج البيئة البدوية الرعوية القاسية التي أفرزتها صحاري أواسط آسيا الشديدة التطرف، وكان الجهاد في سبيل الله ،علة قيامها الأول الذي أنشأت من أجله ، دون الالتفات كثيراً إلى الاختلافات العقائدية والفكرية التي كانت تعتمل بين الطوائف الإسلامية المختلفة ، فأصبحت بذلك إمارة إسلامية فتية متسامحة وحامية لجميع العناصر التي دخلت تحت هيمنتها بغض النظر عن الدين والجنس، شريطة أن تؤدي هذه العناصر ما حتمته عليها الشريعة الإسلامية من فروض كالجهاد على المسلمين والجزية على غير المسلمين، فكانت بموجب ذلك المكان الملائم للعيش لمختلف الطوائف الإسلامية وغير الإسلامية ، كما كان الأنموذج الإسلامي الذي قدمته هذه الإمارة كان مقبولاً لقطاعات واسعة من المسلمين غير المسلمين (٢٣) .

توسعت الإمارة العثمانية بزخم كبير على حساب الكيانات الضعيفة المحيطة بها فتمكنت من توطيد أقدامها في مواقع مهمة من البلقان قبل نهاية القرن الرابع عشر(٢٤) ، وأحاطت بالإمبراطورية البيزنطية التي كانت آنذاك لا تعني أكثر من العاصمة القسطنطينية التي سرعان ما سقطت بيد السلطان العثماني محمد الثاني(الفاتح)في أيار(مايو) ١٤٥٣م ، وكان ذلك حدثاً مهماً في تاريخ الإمارة العثمانية التي تحولت من حينها الى دولة عالمية ، وأصبحت وريثة لكل التوجهات الإسلامية التي تسمرت قروناً عديدة أمام أسوار هذه المدينة ، وامتداداً لها في مواجهة العالم المسيحي وحاملة لواء الهلال في صراعه مع الصليب(٢٥). وأصبحت أيضا وريثة لتوجهات الإمبراطورية البيزنطية السابقة وفرضت نفسها حامية لجموع المسيحيين الأرذودكس الذين عاشوا في كنفها .

دفع التوسع الهائل للدولة العثمانية بأطراف مسيحية عديدة لحمل راية النضـــــال

ضدها ممثلة بالمؤسسة البابوية التي لم تلق سلاحها ضد الإسلام يوماً منذ العصور الوسطى ، ونادى عدد من البابوات بإخراجها من أوربا ثم القضاء عليها في وقت مبكر ، وكأنهم استقرأوا ما سيكون منها مستقبلاً . و كان من أبرز هؤلاء البابا كليمنت السابع الذي دعا في عام ١٣٩٤ملوك الصرب والبلغار والمجر والإمبراطور النمساوي وملوك وأمراء أوربا الغربية إلى الاشتراك في حملة صليبية ضد العثمانيين . وتوالت الحملات الصليبية ضدهم وفي كل مرة تقريباً كانت تمنى بالفشل الذريع ويحتل العثمانيون أراض جديدة (٢٦) . وبعد وفاة القائد المجري الجسور حنا هونيادي الذي أوقع بالعثمانيين سلسة من الهزائم في ١٤آب (أغسطس)١٤٥٦م ، أصبحت وفاته مناسبة لإخضاع ما تبقى من شبه جزيرة البلقان، لم يعد هناك من يقف أمام الزحف العثماني الهائل في شرق أوربا ووسطها سوى آل هبسبرغ(٢٧) أباطرة فيينا. وكان بإمكان سلاطين آل عثمان قهر عروش أوربا مجتمعة لو أرادوا لولا إن سليم الأول(ياوزسليم) البالغ القسوة الذي لم يراع حرمة لأحد فخلع والده ثم أجهز عليه بالسم وابتدر حكمه قي قتل إخوته وأبنائهم في مجزرة مرعبه تعف عنها النفس البشرية وتتعارض تماماً مع الأخلاق الإسلامية الرفيعة وتتنافى مع تعاليم القرآن(٢٨) ،لقد حول سليم الدولة العثمانية عن مسارها وهجر تقاليد الرعاة التركمان الغزاة المجاهدين والجهاد ضد دار (الكفر) وتحول إلى قتال الممالك الإسلامية ، التي كان بإمكانه ان يخلق منها جبهة قوية ورصينة لإركاع أوربا ، التي تركها تلتقط أنفاسها بإستراتيجية جانبتها الحكمة ، وهو ما أحدث رنة فرح في العالم المسيحي وأصبح الجهاد موجهاً ضد إسماعيل الصفوي في فارس ، ودولة ذي القدر التركمانية في جنوب شرق الأناضول وإمبراطورية المماليك في بلاد الشام و مصر والحجاز(٢٩) .

وإذا كان إسماعيل الصفوي اعتنق فكراً مغايراً لفكر الدولة العثمانية الرسمي وأصبح محط تقدير وتبجيل القبائل التركمانية في شرق الأناضول ،لاسيما أولئك الرافضين لما آلت إليه سياسة آل عثمان الداخلية التي صارت تبتعد بالتدريج عن تقاليد الرعاة الغزاة التي كان أساسها الجهاد ضد دار الكفر(٣٠)، كان للمماليك في جهاد البرتغاليين باع طويل وصفحات مشرقة قبل أن يسد عليهم العثمانيون الآفاق. وكان الأجدر بسلاطين أل عثمان التحالف معهم ومساعدتهم في هزيمة البرتغال وطردها من

المياه الشرقية، بدلاً من طرح الدولة العثمانية نفسها بديلا عنهم . لقد أضاع ياوز سليم فرصة ذهبية في تغيير وجه العالم لو إنه شدد النكير على أوربا ، ولو إنه استمع ومن قبله بايزيد الثاني إلى استغاثات مسلمي الأندلس ، لربما تغيرت ظروف هؤلاء ولحصلوا على خيارات أفضل للتعايش مع المسيحية في أسبانيا (٣١). بل على العكس من ذلك بذل سلطان المماليك الأشرف قايتباي جهده في عدة رسائل بعثها الى البابا أنوسنت الثامنAnosentVIII وفرديناند وإيزابيلا في الحصول على ظروف أفضل للمسلمين للتعايش في غرناطة، وذهب السلطان الغوري الى أبعد من ذلك بأن هدد البابا بأنه سيجبر المسيحيين في بلاده على اعتناق الإسلام ما لم يكف الملكان الكاثوليكيان عن معاملة الموريسكيين معاملة سيئة(٣٢).

لم يبد أي مفكر أو مؤرخ إسلامي أسفه لمثل هذه الأعمال التي كان لها أثرها في الإحباط والتردي التي أصابت الجبهة الإسلامية ضد الغرب المسيحي، كما أبدى بعض المؤرخين الغربيين أسفهم إلى اليوم، لأن الدبلوماسية المسيحية لم تعمل على رأب الصدع الذي أصاب الجبهة الأوربية ، التي لا يمكن أن تنقذ نفسها إلا بمقاومة موحدة ، وكأنهم لم يكتفوا بموقف الأمم المسيحية العدواني ضد المشرق الإسلامي الذي أمتد وبإصرار عجيب منذ بداية القرون الوسطى حتى اليوم ،على الرغم ان مابين الأمم المسيحية من التناقضات والصراعات أعمق بكثير من تلك التي بين الأمم الإسلامية (٣٣) . ففي عام ١٤٦٩م توحدت أسبانيا بزواج فرديناند الأراغوني من إيزابيلا القشتالية ، ذلك التوحد الذي تحول إلى كارثة حلت بغرناطة آخر معاقل المسلمين في أيبريا في عام ١٤٩٢، كارثة لم تتوقف بسقوطها وإنما زادت من حماستهم في مطاردة المسلمين خارج أوربا وانتقل نشاطهم إلى أفريقيا التي سبقهم إليها البرتغاليون في عام ١٤١٥في حالة امتزجت فيها الروح الصليبية المتطرفة بالعواطف الوطنية والقومية(٣٤)، وراودتهم الآمال العذاب في إمكانية محاصرة الإسلام(الطاعون الأسود) واجتثاثه في آسيا وأفريقيا وتخليص العالم من (شروره)(٣٥).ولم تخل هذه النزعة من دوافع اقتصادية واضحة ، ذلك أن ما سمعه ألأمير هنري الملاح ١٣٩٤-١٤٦٠عن الثراء العريض الذي كانت عليه أقاليم الشرق ، وراء قدومه إلى هناك لانتزاع التجارة الشرقية من أيدي(أعداء المسيح). وكان هدفه من القدوم إلى الشرق ذا شقين أولهما ديني والأخر

اقتصادي، ذلك أن سيطرة العثمانيين على طرق المواصلات التقليدية التي تربط بين البحر المتوسط والشرق بعد احتلالهم لحوض البحر الأسود ومصر وامتداد سيطرتهم إلى البحر الأحمر بالتعاون مع البنادقة والجنويين، كانت وراء سعي البرتغاليين لاكتشاف طرق جديدة إلى بلاد الهند في حركة اكتشاف والتفاف واسعتين استغرقتا كل القرن الخامس عشر تقريباً(٣٦). فبعد احتلالهم لمدينة سبتة في عام ١٤١٥، احتلوا الشاطئ الغربي لأفريقيا حتى مـصب نهر السنغال في عام ١٤٤٦وهم في طريقهم إلى شبه القارة الهندية التي بلغوها في عام ١٤٩٨ في إطار جهودهم في البحث عن البهار الباهض الأثمان والذهب والأحجار الكريمة والرقيق(٣٧).

تركزت الأخطار البرتغالية في المياه الإسلامية الشرقية كالبحر الأحمر والخليج العربي وخليج عمان ومياه المحيط الهندي . الأمر الذي دفع العثمانيين إلى نقل نشاطهم البحري إلى تلك الأصقاع بعد القضاء غير مشكورين على دولة المماليك التي أضعفها كثيراً التوسع العثماني في جهات البحر الأسود وانقطاع مصدر الرقيق الأول البالغ الأهمية لهؤلاء المماليك لإمداد جيوشهم بالعناصر البشرية المقاتلة. كما قطع التوسع البرتغالي في البحار الإسلامية شريان التجارة الرئيسي بين أوربا والهند المار عبر إمبراطوريتهم ، والذي كان يمدهم بإيرادات اقتصادية ضخمة ، مما أضعفهم كثيراً وأدى إلى هزيمتهم المدوية في معركة ديوDio الفاصلة في عام ١٥٠٩، (٣٨) . بيد أن الخطر الأكثر أهمية على الشمال الأفريقي كان التوسع الأسباني الذي تخطى فيه الأسبان معاهدة توردسيلاس Tordesillas التي أبرموها مع البرتغاليين في ٧حزيران (يونيو)١٤٩٤ برعاية البابا الكسندر السادس (دي بورجيا) ، التي اقتسموا فيها العالم إلى قسمين بخط وهمي يبدأ من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي يمر بنقطة تبعد ٣٦٠ فرسخاً إلى الغرب من جزائر الرأس الأخضر، على ان تكون كل الأرض المكتشفة إلى غرب الخط من حصة أسبانيا ، فيما تكون الأرض المكتشفة الى الشرق منه من حصة البرتغال(٣٩) .

انعكست التطورات السياسية التي رافقت استمرار الحرب في إيطاليا على أعتاب القرن السادس عشر في شمال أفريقيا. وتعدى اهتمام الأسبان، لاسيما بعد اعتلاء شارل الخامس عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عام ١٥١٩ تطور الأحداث في

هذه الحرب ، والصراع مع فرنسا والبابوية في إيطاليا والوقوف بمزيد من الصلابة ضد التقدم العثماني في وسط أوربا ، تعدى اهتمامهم إلى الشمال الأفريقي التي يرون فيها منطقة نفوذ اقتصادي محتمل وقريب فضلا عن النفوذ السياسي والعسكري ، لذا امتد صراعهم مع البنادقة ، الذين تحالفوا مع المماليك قبل سقوط دولتهم على يد العثمانيين لضرب التوجهات الإيبيرية في البحار الشرقية ، ووقفوا مع البابوية في صراعها ضدهم -البنادقة- في حلف كانبري في١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٠٨(٤٠)،وضغطوا بشدة من أجل ضرب التجارة ألإيطالية ، لاسيما تجارة البندقية هناك ، عندما منعوا إسطولها التجاري من دخول ميناء طرابلس بعد احتلالها في عام ١٥١٠رغم طلباتهم المتكررة ، ذلك المنع الذي شمل كل سفن الدول المتوسطية التجارية . وكان الموريسكيون (القراصنة) الذين أقاموا مراكزهم على طول الشواطئ المتوسطية الأفريقية ،وعقدوا العزم على الإغارة الثأرية على شبه الجزيرة الأيبيرية للاقتصاص ممن أخرجهم من الأندلس ، وكان دورهم كبيراً في إثارة الرعب في حوض البحر المتوسط الغربي وضرب التجارة الدولية فيه ، بيد إن الأيام أثبتت إن سيف القرصنة الأوربية قبل ظهور الأخوة بربروسا أشد مضاءً(٤١) .

ليس لأحد القول ما الذي جذب نشاط القراصنة المسيحيين والمسلمين إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط ، أكان الاضطهاد الموجه نحو مسلمي الأندلس العزل وردود الأفعال الإسلامية إزاء ذلك؟ أم البحث عن الثروات التي كان يجنيها القراصنة من عمليات السلب والنهب المتبادل بين مختلف الأطراف ؟. يبدو إن القرصنة كانت أشبه بالوباء في انتشارها في مختلف جهات البحر المتوسط في مرحلة تعود إلى الحروب الصليبية بين أوربا والشرق، إلا إنه من الثابت أن الأخوين بربروسا وجدا نفسيهما في وسط ذلك الأوار في مستهل القرن السادس عشر، وليس هناك من آصرة تربطهم بالدولة العثمانية سوى أن جزيرة مديللي اليونانية أصبحت تحت الحكم العثماني، وربما دخل الأبناء الأربعة في الدين الإسلامي، إلا إنه من الثابت تماماً إنهم اشتغلوا في التجارة(والقرصنة)في مختلف أنحاء البحر المتوسط قبل ان تتوطد علاقة من نوع ما بين الأمير العثماني قرقود بن بايزيد الثاني والريس عروج الأخ الأكبر الذي كان واقعا تحت شـــروط الأمير بعدم الاقتراب من الديار الأوربية الشـــرقية إذا ما كان يرغب بمزاولة

القرصنة(٤٢).

وهرب ألإخوة بربروسا لاسيما عروج وخضر(خسروف) من جزيرة مديللي ومن الحوض الشرقي للبحر المتوسط عند اغتصاب ياوز سليم للعرش العثماني وبطشه بإخوته ومن بينهم قرقود ، للتخلص من بطشه بسبب العلاقة الغامضة المشار اليها ،فوجدا نفسيهما على رأس أسيطيل مكون من اثنتي عشرة سفينة ، ثمان منها يملكها الريس عروج ،وصارا يغيران على السفن التجارية في طول البحر المتوسط وعرضه وليس هناك فرق كبير بين سفينة يملكها مسلمون وأخرى تقل حجاجاً مسيحيين طالما كانتا تحققان ربحاً ،وكأنهما تخلصا بقتل قرقود من التزام أخلاقي إزاءه ،واتخذا من جزيرة جربة قبالة الساحل التونسي مقراً لهما (٤٣) .

كان الأخوان بربروسا يعملان لنفسيهما في التجارة والقرصنة، وكانا يقدمان خدماتهما لمن يطلبها قبل لقائهما بالسلطان أبي عبد الله محمد الحفصي في تونس الذي كان يرى في العائدات الضخمة، التي تشكل خمس عائدات غزواتهم إيراداً مناسباً لخزائنه الخاوية ، وليس في عملهما هذا ما يدل على إنهما خرجا لأجل الجهاد في سبيل الله كما يحلو للبعض أن يصفه ، وانما كان فعلهما قرصنة محضة من أجل المغانم المادية وحسب . إلا إن وجودهما في جزيرة جربة حقق للسلطان الحفصي هدفاً آخراً بكونهما ذراعاً ضارباً ضد التهديدات الأسبانية والمسيحية لسواحل شمال أفريقيا ولاسيما لتونس، لذا أقطعهما ميناء حلق الواد في حدود عام ١٥١٣(٤٤). وكان من بين من طلب خدماتهما سيدي عبد الرحمن صاحب بجاية ، الأمر الذي جعلهما في مواجهة الأسبان ، القوة الأعظم في الحوض الغربي من البحر المتوسط واستحال عليهما هزيمتهم وطردهم من المدينة على الرغم من بلائهما الحسن واستبسالهما ومن معهما في سبيل ذلك(٤٥).

بيد إن ذلك أورثهما شهرة أكثر أصالة كانت محط تقدير أغلب رجال الدين والحكام المحليين في شمال أفريقيا وهي شهرة الجهاد الخالص لوجه الله، التي طغت بالتدريج على شهرتهما السابقة بكونهما قرصانين يعملان لنفسيهما ، تلك الشهرة التي أثارت الشكوك والريب في نفس السلطان أبي عبد الله الحفصي الذي ضاق ذرعاً من اتساع نفوذهما وازدياد قوتهما ، على الرغم من المكاسب المادية الضخمة التي كان يجنيها من

نشاطهما . ويبدو أنهما أدركا ذلك جيداً فلابد لهما من قاعدة أكثر أماناً واستقلالاً بعيداً عن تدخلات الحفصي وأمثاله ، ووقع اختيارهما في عام ١٥١٤على ميناء مدينة جيجل التي تبعد بمسافة ١٠٢ كم إلى الغرب من مدينة بجاية ، وكانت مستعمرة للبحارة الجنويين مستغلين الفراغ السياسي الناجم عن الصراع بين القوى المحلية وأمراء القبائل في المغرب الأوسط (الجزائر)،واجتهدا في إقامة حكومة مستقلة برئاسة الريس عروج، وفرضا على السكان المحليين فروضاً هي إتاوات أكثر من كونها ضرائب وكونا نواة جيشٍ مدربٍ وصارا يتدخلان لصالح هذا الطرف أو ذاك من الأمراء المحليين المتصارعين(٤٦).

وكان المغرب الأوسط(الجزائر)يحكم من قبل مجموعة من الأمراء الإقطاعيين المحليين الفاسدين المتناحرين فيما بينهم على الأغلب ومن الذين لم يتورعوا عن دفع الإتاوات للأسبان المتمركزين في قلعة البينون Penon وهي حصن بني قبالة مدينة الجزائر على صخرة وسط الماء لا تبعد أكثر من٣٠٠م عن الشاطئ ، تحكم الأسبان من خلالها بحركة السفن من وإلى الميناء ولبوا دعوات الاستنجاد بهم من قبل هذا الطرف أو ذاك ضد بعضهم البعض . ولكنهم لم يجدوا غضاضة في استدعاء الأخوة بربروسا لتخليصهم من سطوة الأسبان شريطة أن يخرجوا من البلدات والمدن والموانئ إلى عرض البحر بعد طرد الاسبان منه. غير أن الأيام أثبتت إنهم كالمستجير من الرمضاء بالنار، إذ توجه عروج إلى مدينة الجزائر واستولى عليها في عام ١٥١٦وسلط مدفعيته على الحصن الأسباني وصار يضربه ضرباً متواصلاً دون نجاح يذكر. بيد إنه عمل بجد ونشاط في القضاء على الفساد والتسيب الإقطاعي المستشري في المدينة وإقامة حكومة قوية بإمكانها مجابهة الغزاة الأوربيين، فقبض على المتنفذين فيها وقتلهم بمن فيهم سالم التومي حاكم المدينة الذي علق لبضعة أيام على أحد أبوابها ،وهرب ابنه يحيى بن سالم إلى الأسبان أعداء البلاد السابقين(٤٧).

وتوسعَ الأخوان بربروسا في عموم الإقليم الذي صار يسمى بالجزائر واستوليا على قبصة ومليانة وإقليم القبائل وتنسي وطردا حاكمها مولاي عبد الله من بني زيان منها(٤٨) . وقسم عروج منها البلاد إداريا الى منطقة شرقية مكونة من خمس بلديات ومقرها دلسي ،تحت إشراف الريس خضر(خيرالدين)، وخمس بلديات أخرى غربية لنفسه وعاصمتها الجزائر، حتى تسهل السيطرة عليها (٤٩) .وعمد الاخوان إلى إصلاح

وترميم المراكز المهمة ونقاط الاستحكام على الشاطئ وإقامة حكم فتي يستند الى العدل في التعامل مع الناس وإشراك العلماء وذوي الرأي في شؤون الحكم . بيد أن ما يحتاج إليه هذان المقاتلان الجسوران أكبر ما يمكن لقواهما الذاتية أن تؤمنه أو ما يستطيع المجتمع الجزائري أن يقدمه في صراعهما الذي يقطع الأنفاس مع الأسبان والقوى المحلية التي تحالفت معهم . الدولة العثمانية فقط هي الطرف المؤهل لتقديم ما يعوزهما من الدعم الشرعي المعنوي والإسناد المادي والعسكري . لذا أرسل الريس عروج في النصف الأول من عام ١٥١٧ إحدى السفن التي غنمها في إحدى غزواته وهي محملة بنفائس وتحف ما غنمه من سفن المسيحيين وتجارهم الى ياوز سليم وهدايا مماثلة للنخبة من خاصته، مع الريس محيي ، وأخرى مع الريس مصلح الدين كورت أغلو التي ربما أراد بها الريس عروج أن يلفت نظر السلطان سليم الذي كان حينئذ في مصر، إلى الشمال الأفريقي ،ولم يعر ياوز سليم لهاتين الالتفاتتين بالاً واكتفى بالدعاء له. . . !!! (٥٠)، دعاءً لا يسمن ولا يغني من جوع ، ذلك إن عروج أمام تحديات ضخمة من قبل الأسبان ،وليس بحاجة الى دعاء السلطان قدر حاجته إلى إمداد عسكري سريع ، وما كان أمامه سوى الاعتماد على قدراته الذاتية في إكمال فتح الجزائر بعد أن قلبت له القوى المحلية ظهر المجن.

وعندما يئس الريس عروج من نصرة السلطان ياوزسليم أخذ على عاتقه إخضاع ما تبقى من الجزائر فتقدم لإخضاع تلمسان التي كانت تشهد تناحراً بين أبي حمو الثالث وابن أخيه أبي زيان أحمد الزياني من أبناء العائلة الزيانية الحاكمة(٥١). وتقع تلمسان في أقصى غرب الجزائر، فتجاوز وهران التي كانت تحت السيطرة الأسبانية ، وسيطر على قلعة بني راشد ذات الموقع الإستراتيجي المهم جداً وسلمها لأخيه الريس إسحق لتأمين طريق عودته ، وتقدم هو لاحتلال المدينة بمساعدة متطوعي الأهالي الذين فيما يبدو لا يخلصوا الولاء لحاكم ولا يحفظوا ذمة أحد، وتمكن أبو حمو الثالث الفرار منها بيسر وترك فيها غريمه أبا زيان الزياني ابن اخيه (٥٢) ، وواصل هروبه إلى الأسبان في وهران ومنها الى أسبانيا لمقابلة ملكها شارل الأول(٥٣) مترجيا إياه أن يساعده لاسترجاع عرشه(٥٤) .

وكان الملك عند حسن ظن من استجار به ، إذ ساعده لاســـترجاع عرشه بالاعتماد

على كل الناقمين على حكم عروج، الذي اتسم بالحداثة والصرامة معاً ، بدعم من الأسبان في مدينة وهران. وبعد القضاء على إسحق بربروسا ومن معه ممن كانوا يرابطون في قلعة بني راشد بعد مقاومة ضارية أبداها هؤلاء(٥٥)، قاد أبو حمو الثالث جموع المحليين والأسبان لمحاصرة تلمسان وقتل عروج بعد دفاع مجيد وصادق عن المدينة استمر أكثر من ستة أشهر في آب (أغسطس)١٥١٨، بعد أن خانه الأهالي الذين كانوا معه وترك مع ثلة من المقربين له، وكان وقتذاك في الرابعة والأربعين من العمر ولم يعقب أولاداً، وكان لاستشهاده رنة فرح غامر في إسبانيا إذ أرسلت ملابسه إلى هناك وقدمت هدية إلى كنيسة سانت جيروم في قرطبة فصنع منها القساوسة شعاراً باسم شارة بربروسا(٥٦).وهكذا ذهب هذا المجاهد البطل والمقاتل الفذ ،الذي لا يهاب أحداً ضحية تصميم بني زيان لاسترداد حكمهم بأية وسيلة حتى بالتعاون مع الأسبان أعداء البلاد الحقيقيين، ولامبالاة بني مرين الأكثر قرباً من تلمسان، رغم إن عروج تحالف معهم في بداية دخوله المدينة، من ضمن الإجراءات التي اتخذها لمواجهة التحديات الإسبانية ،وتجاهُل تام من قبل السلطان العثماني إزاء دعوات الاستغاثة، التي كان عروج يبعث بها له قبل احتلاله المدينة، إلا أن السؤال الذي تجب الإجابة عنه ؛ لماذا خان الأهلون الريس عروج وتركوه ومن معه لمصيرهم؟، أكانت الضرائب التي فرضها عليهم سبباً في القطيعة معه(٥٧) ؟،وإذا كان كذلك ،لماذا رضوا بما فرضه عليهم الأسبان ؟ وهل كانوا يرون الأسبان أكثر رأفة بهم من (القراصنة) ؟.

الاستراتيجية العثمانية بين السلطان سليمان القانوني وخيرالدين بربروسا

كان مقتل الريس عروج وأخيه الريس إسحاق كارثة شديدة الوقع على آل بربروسا ونشاطهم في شمال أفريقيا ولاسيما في إقليم الجزائر، بقدر ما كان انتصاراً إسبانياً بتمييز وللقوى المحلية ، التي ازداد التصاقها بالإسبان الذين أحسوا بنجاعة أساليبهم. واحتاج خيرالدين لسبع سنوات من النضال دون هوادة لاستعادة الجزائر إلى ما كانت عليه قبل استشهاد أخيه ، وإلى أكثر من عشر سنوات أخرى لتوحيدها وإبعاد الخطر الأسباني المحدق بها ، بجهوده هو وحده دون أية معونة مادية أو دعم معنوي من الدولة العثمانية (٥٨) . وعندما استنجد خير الدين بسليم المرعب لم يجرؤ على مخاطبته مباشرة وإنما كتب رسالته أو استنجاده على ألسنة سكان الجزائر لربط قضية بلادهم بالدولة العثمانية

، وكان خيرالدين يعرف تماماً موقف السلطان من آل بربروسا وإلا لما كتب الاستنجاد على لسان غيره ، وكان حرياً به بأن يحمل استنجاده إلى السلطان بنفسه ، ولما حمله شخص مراوغ ومنافق من أمثال ابو العباس أحمد بن قاض(٥٩) .

وللمرة الثانية كانت النجدة العثمانية لا تتعدى بضعة آلاف من المتطوعة الذين لا يربطهم نظام ولا رابط وبعض من سلاح المدفعية مع رتبة البكلربكي(٦٠) الفخمة ، التي لم يكن خير الدين بحاجة إليها ، بل ربما نفرت منه سكان أفريقيا الذين لا يريدون الانصياع لدولة حديثة قوية وأن يكونوا ملزمين أمامها . ولم يعش السلطان سليم طويلا بعد استشهاد الريس عروج ، ورحل غير مأسوف عليه .ويبدو إن رحيله أذاب الجليد (إذا جاز لي القول) بين السلطان سليمان وخير الدين بربروسا في كفاحه ضد الأسبان والقوى المحلية المتحالفة معهم . وتزامن ذلك مع رحيل الإمبراطور مكسمليان الأول في عام ١٥١٩وإعتلاء حفيده الأرشيدوق شارل ملك أسبانيا عرش آل هبسبرغ ، وسبق له أن ورث الإمبراطورية الأسبانية الهائلة عن فرديناند وإيزابلاّ بكونه حفيدهما أيضا من إحدى بناتهما بعد وفاة فرديناند الكاثوليكي في عام ١٥١٦، ودمج العرشين مع بعضهما في الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي صارت تمتد امتدادا هائلاً من وسط أوربا إلى آسيا وأفريقيا والأمريكتين، بمقدرات هائلة لم يسبق لها مثيل من قبل (٦١) . وبذلك وقف السلطان سليمان والريس خير الدين بربروسا إزاء عدو واحد هو الإمبراطورية الرومانية والإمبراطور شارل الخامس وأصبح من مصلحة الاثنين الوقوف بوجه هذا العملاق الضارب الأطنان حول العالم(٦٢) .

باعتلاء السلطان سليمان "المشرع" ، وهو أحد أعظم سلاطين آل عثمان وأكثرهم مدعاة للاحترام، استقامت الاستراتيجية العثمانية القائمة على الجهاد ضد(دار الكفر)، وانعكس ذلك سريعا في شمال أفريقيا وعلى نشاط خير الدين في ضرب مراكز القوى هناك ، كما أثر على النشاط الإسباني البرتغالي في البحر المتوسط بل إن التقاء هذين المجاهدين في مياه البحر المتوسط وشمال أفريقيا ،أثر على أوضاع المسلمين الفارين من أسبانيا ، فقد أسهم إسطول خيرالدين في نقل أعداد ممن تقطعت بهم السبل من هؤلاء إلى الجزائر ، وكان لهم الأثر في دعم بكلربكية هناك (٦٣) .

ومما يمكن قوله أن الدولة العثمانية نشأت على أسس الجهـــاد في البر بالدرجــــة

الأولى وبقيت دولة برية حتى تسنم السلطان سليمان المشرع العرش . وربما شعر العثمانيون بأهمية الأسطول عندما أصبحوا في مواجهة الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت تمتلك أقوى إسطول بحري حول العالم ، إلا إنه لا يوجد ما يدلل على اهتمام العثمانيين في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، رغم كل صرخات الاستغاثة التي أطلقها المسلمون في الأندلس طلباً للنصرة ضد الأسبان، الذين كان يدفعهم عزم كبير إلى القضاء على آخر المعاقل الإسلامية في بلادهم ،إذ استنجد هؤلاء بالسلطان محمد الثاني(الفاتح) في عام ١٤٧٧ أي قبل الاجتياح الإسباني لدولة بني الأحمر في غرناطة(٦٤) ، ثم بعثوا بصريخهم إلى ابنه بايزيد الثاني(٦٥) ، ومن بعده إلى ابنه السلطان سليم(٦٦) بعد أن بحت أصواتهم في مناداة حكام شمال أفريقيا الحفصيين والمرينيين والمماليك في مصر كما مر معنا (٦٧) . وفي كل مرة يذهب صريخهم واستنجادهم أدراج الرياح ثم يأتي بعد ذلك من يتشدق بأن نشاط الأخوة بربروسا كان جزء من خطة الدولة العثمانية لاستعادة الأندلس، ألا إنه لا يمكن تجاهل إن لخير الدين الفضل الأكبر في جرجرة الدولة العثمانية الى هذا الجزء من البحر المتوسط ، إلى حيث يجب أن تتدخل ، بعد أن عجز عن مواجهة العملاق الأوربي بقدراته الذاتية .

لقي خير الدين ترحيباً ودعماً من ملك فاس أحمد الوطاسي بعد أن أظهر خير الدين تعاونه واستعداده في وضع قوته العسكرية رهن إشارته إذا ما شاء في مهاجمة أي موقع مسيحي على الشاطئ الأفريقي على أن يوفر له الملك الوطاسي شيء من ملح البارود . وبلغت أخبار ذلك التعاون البرتغاليين في سبتة والأسبان في مليلة ،وحشد الطرفان قوتيهما للدفاع عن هذين الموقعين المهمين(٦٨) . وكان ما يخشاه الملك الوطاسي أن تتظافر جهودهما لطرد خير الدين من الجزائر أو أن يثب خيرالدين على ملكه والإنفراد بحكام الشمال الأفريقي الواحد بعد الأخر، إلا إن ذلك لم يقع بسبب عمق الخلافات بين الدولتين الأيبيريتين رغم مهاجمة أندريا دوريا مدينة شرشال بمساعدة الفرنسيين ، من جانب وحنكة خير الدين الذي رأى في الملك الوطاسي حليفاً خير منه تابعا (٦٩) .

لقد فتح آل بربروسا الجزائر بجهودهم الخاصة وقدموها للدولة العثمانية ، وأسهموا،لاسيما خير الدين في إدخال الأنظمة العسكرية والإدارية والاقتصادية

العثمانية الى البلاد وتدفق الجند الانكشارية (٧٠) المتطوعون ومعهم امتيازاتهم التي كانت دافعاً لهؤلاء للقدوم إلى أرض الشمال الأفريقي بأعداد كبيرة . فأسس خيرالدين بهم أوجاق الجزائر مع المتطوعة المحليين والمورسكيين .ومما يؤخذ على أوجاق الجزائر، إن أكثر منتسبيه من المشاغبين والمشاكسين والميالين بطبعهم إلى التمرد والمغامرين من الباحثين عن الثروات والمتهمين بارتكاب جرائم والملاحقين قضائياً. وكان الممثلون يرفعون الأعلام في مدن الأناضول وجزر البحر المتوسط وينادون بأعلى أصواتهم بالدعوة للتطوع إلى **"أرض الربح بدون تعب وجمع النقود بدون عرق ودون بذل أي جهد"(٧١) ،. . . "من يرغب في الموت دون أن يشعر بالألم ويكسب المال دون كلل ، فليأت وينضوي تحت لوائنا"**[٧٢] .ويبدو ان هؤلاء يختلفون تماماً عن إنكشارية الأناضول لاسيما العاصمة إسطنبول حيث كان أولئك يتقون بدقة من بين أطفال الديوشرمة(ضريبة الرأس) وعلى الرغم من شجاعتهم وشدة مراسهم وسهولة قيادهم إذا أُحسنت قيادتهم، بيد إنهم مشاغبون صخابون وظالمون لا يرحمون إذا كان قوادهم(أغواتهم) رجالاً ضعافاً ، لذا ساءت علاقتهم بالأهالي واعتدوا عليهم أينما حلوا. وتزايدت أعدادهم في الجزائر حتى بلغت٢٢ألف لهم ثكناتهم الخاصة التي كانت تسمى باسم (القصرية) ومنحوا رواتباً من خزينة الدولة وكلف الأسرى بخدمتهم داخل ثكناتهم وفتحت أمامهم سبل الارتقاء في المناصب العسكرية وأصبح بإمكانهم الزواج من النساء المحليات وصار بمقدور بعضهم مزاولة المهنة التي يتقنها،فضلا عن واجبه العسكري(٧٣).

وكان خيرالدين قادراً على شكم ميول الانكشارية المعادية للنظام والانضباط بالاعتماد على المتطوعين المحليين البربر والعرب والموريسكيين والأرناؤود والروم من المهتدين(المسيحيين الذين أعلنوا إسلامهم)الذين كانوا رياساً وربابنة من طواقم السفن الذين لم يخفوا تذمرهم وسخطهم من طباع الإنكشارية وعدم انضباطهم ، وألف منهم خير الدين فرقة عسكرية وجهزها بالمدفعية وعين لها مدربين وكان يشرف بنفسه على تدريبها وتجهيزها. وبها أيضا ألزم الأهلين الطاعة واداء ما عليهم من فروض وضرائب . وأدت هذه الفرقة دوراً مهماً في التوازن بين مختلف القوى داخل الجزائر طيلة وجود خيرالدين هناك ، مماله الأثر فيما بعد عندما أنتدب لقيادة الأسطول وأصبح الصخابون

أولئك شريحة متميزة لم يجرؤ أحد على الحد من سلطاتهم وصاروا سادة البلاد بالتدريج (٧٤) .

وأدخل إلى الجزائر النظام الاقطاعي العسكري لدعم البكلربكية الجزائرية التي من المفترض أن تسد حاجتها بنفسها من الجند وتؤمن الفرسان والسلاح لأغراض الجهاد ، فضلاً عن ٤٦٨ ألف دورو(٧٥)هو ما كانت تقدمه بكلربكية الجزائر لخزينة الدولة في اسطنبول دون أن تحرك جيشاً أو أسطولا ودون أن تتحمل وزراً أو نفقة(٧٦) . وكان النظام الإقطاعي العسكري أكثر كفاية وحداثة وأفضل أداءً من كل الأنظمة الإقطاعية التي كانت سائدة في الشمال الأفريقي من قبل، ومنذ أن اعترف العثمانيون بنشاط خير الدين في الجزائر، أصبحوا مالكين لكل الأراضي التي صار يطلق عليها الأراضي الأميرية، من الناحية النظرية على الأقل، وأضحت الدولة تتقاضى عنها الضرائب المختلفة مثال الخراج والعشر وغيرها. وأصبح من حق الدولة منح هذه الأراضي على أسس إقطاعية لمن يقدم خدماته للدولة، وهي مقسمة الى ثلاثة أقسام : التيمارات والزعامات والخاصات ،على وفق درجة المُقطَع ورتبته وأهمية الخدمة المقدمة من قبله وغلة الأرض المقطعة ،وكانت هذه الأراضي تعفى من أداء الضرائب مقابل الخدمات التي يقدمها هؤلاء للدولة وقدرتهم على تجهيز المقاتلين وتسليحهم ،وغالبا ما تنتقل ملكيتها(في الواقع) إلى أبناء التيماري أو الزعيم أو متولي الملك الخاص . وفي الغالب أيضاً ما تعطى الى الفلاحين المحليين لزراعتها ورعايتها مقابل نسبة من المحصول. وكانت مروج شمال أفريقيا ومراعيها أماكن مناسبة لتطبيق الإقطاع العسكري العثماني القائم على تربية الخيول(٧٧) .

أصبحت الإستراتيجية العثمانية واضحة المعالم في شمال أفريقيا بعد عام ١٥٣٣وهو العام الذي استدعى فيه السلطان سليمان خير الدين بربروسا إلى العاصمة واستقبله الاستقبال اللائق الذي يليق به والتشريف السلطاني الذي أنيط به، وهو تعيينه قائداً(قبو دان دوريا)للأسطول العثماني والإشراف على بنائه وتقويته **"إن التفوق البحري التركي «العثماني»في البحر يعود لإقامة خير الدين الشتوية في الترسانات البحرية "**(٧٨) . ويعد هذا التعيين أحدى اللفتات الحكيمة والصائبة للسلطان سليمان إذ عين الشخص المناسب في المنصب المهم ، وكان امتداداً للصراع العثماني الهابسبورگي في البحر المتوسط. لقد

ارتفع خيرالدين بالأسطول العثماني إلى درجة الكمال ونفذ بهمة لا تقبل الفتور الاستراتيجية العثمانية ، التي أفرغ فيها طموحه الشخصي وخبرته في البحر المتوسط . وعبر عن ذلك بقوله في حضرة السلطان " **لتوسيع حدود منطقتنا يجب مطاردة المسيحيين في البر والبحر وإنني لا أطلب أكثر من أن تضم أساطيلك وقواتك الى أساطيلي وقواتي وسأقود هذه وتلك في خدمتك ، وإذا ما قدرني ﴿الله﴾(٧٩) فعما قريب سيطرد الأسبان من كل أفريقيا"(٨٠) . "إن هدفي إذا قدر لي شرف الاشتراك في طرد الأسبان في أقصر وقت من أفريقيا، ومن الممكن أن تسمع بعد ذلك إن المغاربة قد أغاروا على الأسبان من جديد ليعيدوا مملكة قرطاجة وإن تونس أصبحت تحت سلطانك، إنني لا أبغي من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قواتك قبل المشرق،لاسيما وإن حروبك في آسيا وأفريقيا﴿وأوربا﴾أكثر ما تعتمد على قوات برية ،أما هذا الجزء فإن كل ما أطلبه جزء من أسطولك الذي سيكون كافياً للإخضاع هذا الجزء لسلطانك"(٨١)**. وعندما غادر خير الدين في عام ١٥٣٣إلى إسطنبول خلف وراءه حسن أغا الطواشي وهو خصياً من جزيرة سردينيا كان محط ثقته ، وهزم في طريقه إلى إسطنبول أسطولاً هابسبورگياً عند شبه جزيرة المورة اليونانية، وكانت لمقدمه رنة فرح في الأقاليم الإسلامية التي كان يمر بها(٨٢) .

كان استقرار الأوضاع في الجزائر وانضمامها تحت السلطة العثمانية واستدعاء خير الدين بربروسا الى إسطنبول لتقلد قيادة الأسطول، بمثابة فتح جبهة جديدة ضد الإمبراطورية الرومانية وتهديد الشواطئ الإيطالية التي كانت في هذه المرحلة من ممتلكات آل هابسبورگ ، لذا اشتد الصراع بين الطرفين للسيطرة على تونس القريبة من الجزائر وغير البعيدة من صقلية ، وكانت الأسرة الحفصية تعاني التفكك النزاع بين أفرادها ففي الوقت الذي كان فيه السلطان الحفصي متحالفاً مع شارل الخامس ، كان أخوه الأمير الرشيد لاجئاً إلى خير الدين هرباً من أخيه السلطان ، وبذلك أعطى خير الدين ومن ورائه السلطان العثماني الذريعة الكافية لإلحاق تونس بالجزائر ، فأصبح مضيق صقلية والتجارة المارة فيه تحت رحمة الرياس (القراصنة) من أخدان خير الدين(٨٣). ولم يواجه خير الدين عقبات كبيرة في السيطرة على تونس وطرد السلطان الحسـن الحفصي منها وضمها الى أملاك الدولة العثمانيـة ،وبذلك تأكدت السيادة

العثمانية على الحوض الغربي من البحر المتوسط (٨٤) .

تزامن هجوم خيرالدين على تونس مع هجوم الشريف السعدي أحمد الأعرج الذي نأى بنفسه عن الأسبان والبرتغاليين(مؤقتاً)،على مدينة أزمور وآسفي المحتلتين من قبل البرتغال في عام١٥٣٤ فكان هذا الهجوم التفاتة رائعة حفظها له خير الدين الذي كان مجرد وجوده في الشمال الأفريقي على رأس إسطول عثماني يثير الرعب في نفوس الأعداء ودعم للقوى المناوئة للأسبان والبرتغاليين (٨٥).إلا إن هذا التوافق بين الطرفين لم يستمر طويلا، عندما استثمر البرتغاليون هزيمة الوطاسيين أمام السعديين في عام ١٥٣٦في موقعة بير عقبة بتصفية مشاكلهم مع الوطاسيين في اتفاقية تجارية أكثر منها سياسية تسري أحكامها لمدة أحد عشر عاماً ، ثم مع السعديين في ٢٥نيسان (أبريل) ١٥٣٧ بإيقاف الأعمال بين الطرفين لمدة ثلاث سنين مع إقامة تبادل تجاري بين رعاياهما (٨٦) .ويبدو إن هذه الهدنة والاتفاق بين القوى المغربية والبرتغال لم تكن موجهة لإرضاء هذه القوى أو دفع غائلتها وإنما لقطع الطريق أمام أي تعاون إسلامي في الشمال الأفريقي، بعد الصفعة التي وجهها شارل الخامس لخير الدين والسلطات العثمانية في تونس وما تبع ذلك من تعاون عثماني فرنسي بموجب معاهدة الامتيازات الأجنبية الموقعة بين الطرفين في شهر شباط(فبراير) ١٥٣٦ (٨٧).

كان الفتح العثماني لتونس إنذاراً مبكراً للإمبراطور والبابا وفرسان القديس يوحنا في طرابلس ومالطا التين يعدهما المسيحيون حصني دفاع متقدم عن أوربا المسيحية ، لذا ليس من قبيل الصدفة أن قاد الإمبراطور حملة عسكرية بحرية صليبية ضخمة في حزيران (يونيو)١٥٣٥شارك فيها مقاتلون من كل أمم الإمبراطورية الرومانية المقدسة بلغ تعداد رجالها أكثر من ٣٠ ألف ، حملوا على ٥٠٠ سفينة(٨٨) ، واختار التوقيت المناسب لتقدمها عندما كان السلطان سليمان منشغلاً في صراعه مع الصفويين من أجل العراق ، فضلاً عن إن استنجاد الحسن بن محمد السلطان الحفصي السابق به أكد لدية فكرة الهجوم على تونس دون غيرها . وعندما رست الحملة على الشواطئ التونسية كان بانتظارها خير الدين على رأس سبعة آلاف جندي عثماني وعدد مقارب من القوى الوطنية المشتتة الولاءات (٨٩) . وعلى الرغم من التباين العددي والمعنوي الكبير بين ما كانت تتمتع القوة الغازية والقوة المدافعة بقيادة خيرالدين الذي قرر الصمود بأي ثمن ،

إلا إن الإمبراطور أحرز انتصاراً لم يكن سهلاً بكل المقاييس ، كان من أبرز نتائجه مذبحة هائلة للمدنيين الأبرياء ذهب ضحيتها أكثر من ثلاثين ألف بريء، فكانت معركة ثأرية ولكنها ضد الأبرياء ،إذ نجح خير الدين شق طريقة وسط القبائل المحلية المعادية له والانسحاب إلى الجزائر، في مقابل عودة الحسن الحفصي الى حكم البلاد وسط الجثث والخراب (٩٠) في ظل حزمة من الشروط المهينة التي جعلت منه خاضعاً للأسبان بامتياز، منها على سبيل المثال ، تسليم المدن التي كانت في حوزة خير الدين إلى الإمبراطور فوراً، وأن يتعهد بدفع رواتب الأسبان الألف الذين تخلفوا في حلق الواد ، والتي بلغت ١٢ألف دوقة(٩١) سنوياً ، وأن يكون السلطان الحفصي رديفاً لفرسان القديس يوحنا في الدفاع عن أوربا بوجه المد العثماني الإسلامي، مع شرط جزائي (إذا جاز لي العبير) أن يدفع السلطان٥٠ ألف دوقة إذا أخفق في تنفيذ أي من هذه الشروط في المرة الأولى و١٠٠ألف في المرة الثانية ، وتؤخذ منه البلاد إذا أخفق في المرة الثالثة(٩٢) .

على الرغم من أهمية تونس وموقعها الاستراتيجي ،إلا إن فقدانها لم يفت في عضد خير الدين ولم تتوقف الهجمات الإسلامية على الشواطئ الإسبانية، بل على العكس من ذلك فقد وسع خير الدين من هجماته فهاجم جزر البليار والسواحل الجنوبية لأسبانيا ثم دلف إلى المحيط الأطلسي باجتياز مضيق جبل طارق ، وأطلق لأسطوله العنان في مهاجمة السفن الاسبانية والبرتغالية المحملة بالنفائس القادمة من العالم الجديد (٩٣). بيد إن أخطر النتائج التي ترتبت على هذا الغزو الذي كان تحدياً كبيراً للدولة العثمانية هو دخول الأخيرة في تحالف مع فرنسا بموجب اتفاقية الامتيازات الأجنبية التجارية آنفة الذكر، التي قادت الى تعاون عسكري عثماني مع الفرنسيين، بقي طي الكتمان حتى لا يتعرض العاهل الفرنسي لسخط شعبه(٩٤)،في مرحلة شديدة الحراجة من تاريخ فرنسا الحديث ، عندما كانت محاطة بممتلكات الإمبراطورية من ثلاث جهات ومهددة منها بالتقسيم بالاشتراك مع إنكلترا الملك هنري الثامن زوج خالة الإمبراطور (٩٥) .وبذلك تداخل الصراع الإمبراطوري العثماني مع الحروب الفرنسية الإمبراطورية من أجل إيطاليا، واتسعت الجبهة المتحالفة ضد الإمبراطور بانضمام البروتستانت الألمان من أتباع مارتن لوثر أو حلف شمالكالد لها(٩٦). وأصبحت أراضي الدولة العثمانية موئلاً لهؤلاء المضطهدين الذين لقوا من الحفاوة والتسامح الذي

طالما اتصف به آل عثمان ، وتبادلوا الرسائل مع قادتهم وأوضحوا لهم ، ربما للتخفيف عنهم ،التشابه بين البروتستانتية والإسلام (٩٧).

كان التحالف العثماني الفرنسي مهما جداً لفرنسا عندما كانت تواجه عدواً هائلاً وشرسا يحيط بها من جميع الاتجاهات، فقدم السلطان العثماني دعما نبيلاً للعاهل الفرنسي بمهاجمة الإمبراطورية الرومانية في أيار(مايو)١٥٣٧ استجابة لندائه بالضغط على الإمبراطور وحجز جزء من قواته في الجبهة الشرقية ، ومن أجل ذلك تصدى الإسطول العثماني بقيادة خير الدين للأسطول الإمبراطوري بقيادة الأمير أندريا دوريا ، الذي لا يقل عنه جرأة وجسارة ، وكانت نتيجة هذه المنازلة انتصار الأسطول العثماني في معركة بريفيزاPrevezal ،وهي القاعدة البحرية العثمانية في ألبانيا على البحر الأدرياتي، ثم استيلاء الأسطول العثماني على أرخبيل الدوديكانيز وجزيرة كورفو وخروج البندقية من الحلف الأوربي ضد الدولة العثمانية وعقدها معاهدة صلح منفرد معها في عام ١٥٣٩(٩٨) ، وطرد أندريا دوريا من بحر إيجة ومن ثم عقد معاهدة نيس في ١٨ حزيران (يونيو)١٥٣٨ بين العاهلين الكاثوليكيين ، والتي كان من المفروض أن تسري أحكامها بين الطرفين لمدة عشر سنوات ، بيد إن الأيام أثبتت إن ما بين العاهلين الكاثوليكيين من تناقضات أعمق من قدرة معاهدة على تسويتها قبل أن يمزقها الملك فرانسوا الأول عندما أخل الإمبراطور بأحد بشروطها (٩٩) . ويبدو إن إبرام الهدنة المذكورة لم تؤثر على نشاط السلطان الذي استمر بالضغط على الإمبراطورية باحتلال مولدافيا(البغدان) وإلزام أميرها الطاعة له بعد أن خلعها بدفع من الإمبراطور ،ثم احتل إقليم بساربيا بين الدنيستر والبروث(١٠٠) .

دفع النجاح الذي أحرزه الإمبراطور في تونس، والضغط العسكري الكبير الذي سلطه السلطان سليمان على الإمبراطورية الرومانية بالاستيلاء على بودا عاصمة المجر في ٢٦آب(أغسطس)١٥٤١وطرق أبواب فيينا بشدة(١٠١) والأخطار ،التي كانت تسببها البحرية العثمانية في الجزائر لسواحل الإمبراطورية الرومانية ،لاسيما في إيطاليا ، وتوقف القتال مؤقتاً بين جيوش الإمبراطور والجيوش الفرنسية في مختلف الجبهات الأوربية على أثر عقد هدنة نيس آنفة الذكر، دفعت هذه العوامل مجتمعة الإمبراطور لأن يجهز جيشاً هائلاً حمله على أسطول أكثر هولاً، ضم في صفوفه شخصيات أوربية مهمة مثل

هرناندو كورتيز فاتح المكسيك ، وأندريا دوريا القائد البحري الجنوي المشهور، وأحد إخوة البابا بولس الثالث ، وعدد غير قليل من نبلاء أسبانيا وألمانيا وإيطاليا ، وتوجه به إلى الجزائر في الوقت غير المناسب "لهدم أوكار (القراصنة)" . وكانت مغامرة استعراضية غير محسوبة النتائج ، فتظافرت عدة عوامل على القضاء على هذه الحملة قضاءً مبرماً دون تحقيق أي من أهدافها ، منها الصلابة والدفاع المستميت وسياسة الكر والفر التي أبداها الجنود المحليون ، والرياح الشديدة والأمطار المصاحبة لها التي عصفت بالأسطول ولم تعط مجالاً للغزاة حتى للفرار، تلك العواصف التي عندما هدأت ، كانت الكارثة قد حلت بالحملة التي لم ينجو منها إلا من حالفه حظه في الإفلات من القتل أو الأسر وكان الإمبراطور من بين الناجين(١٠٢).

أدى إخفاق الإمبراطور شارل الخامس في حملته الأفريقية إلى سيادة خير الدين المطلقة ومن ورائه الدولة العثمانية في الشمال الأفريقي، وتزعزع مركز الأسبان في وهران وبقية الجيوب الأخرى، وانسحاب البرتغاليين من أمام السعديين الذين تلقوا مساعدات عثمانية قيمة من سلاح المدفعية والآلات الحربية الأخرى، من حصن سانتا كروز وآسفي وأزمور(١٠٣) ،كما أدى إلى توثيق التعاون العثماني الفرنسي ،لاسيما في البحر المتوسط وتعهد خير الدين بحماية الشواطئ الفرنسية المتوسطية إلى إسراع الملك الفرنسي بخرق معاهدة نيس في عام ١٥٤٤، ومهاجمة إيطاليا بالتعاون مع خير الدين الذي أثار وجوده على رأس الأسطول العثماني مشاعر الهلع في عموم شبه الجزيرة الإيطالية، إلا إنه لم يتمكن أكثر من سلب ريگيو ونيس وبعض سواحل قطالونيا Catalonia والقبض على عدد لا يستهان به من الأسرى أرسلهم خير الدين إلى إسطنبول على ظهر أربع سفن(١٠٤) . أما الجيش الفرنسي فقد انتصر انتصاراً بارعا على الإمبراطور في إيطاليا في معركة سيروزول Cerosole في نيسان(أبريل) ١٥٤٤(١٠٥) .

أثارت الانتصارات الفرنسية الناجمة عن التعاون العثماني القوى المسيحية المختلفة وتعاهدت على تقطيع أوصال فرنسا، وتقدمت القوات الإمبراطورية حتى عبرت نهر المارن باتجاه باريس واستولت القوات الإنكليزية على ثغر بولوني، الأمر الذي دفع بالعاهل الفرنسي إلى الرضوخ لضغوط الموقف العسكري،ودخل في مفاوضات مع الإمبراطور أسفرت عن عقد معاهدة كرسبي في ١٨ أيلول (سبتمبر)١٥٤٤التي نصت في

ديباجتها على تضامن الطرفين ضد العثمانيين (١٠٦). وبذلك أسقط بيد خير الدين الذي كان مرابطاً يقضي الشتاء في ميناء طولون على حساب الخزينة الفرنسية . وفي أثناء وجوده هناك اتصل بغريمه أندريا دوريا من أجل فداء أحد أبرز رياس البحر العثمانيين بعد خير الدين وهو درغوث(طرغوت) الأسير منذ ثلاث سنوات بملغ ثلاثة آلاف دوقة (١٠٧) ، ويبدو إن موافقة إندريا دوريا على بيع هذا البطل بهذا المبلغ الذي بدى ضئيلا إزاء حريته ، خطل في الرأي وقع فيه بقدر ما كانت صفقة موفقة لخير الدين ، إذ شدد هذا البطل النكير على سفن الدول المسيحية بمجرد نيله حريته . وفي ربيع عام ١٥٤٤ خرج خير الدين من ميناء طولون وفي طريقه ضرب دون هوادة جزر ألباAlba وأسكيا وكالابرياCalaberia وليباري وحصل على أعداد كبيرة من الأسرى أختتم بها جهاده البحري، إذ كانت غزوة عام ١٥٤٣-١٥٤٤وهو في سن جاوز الثمانين آخر غزواته، إذ توفي(رحمه الله) في ٤تموز(يوليو ١٥٤٦(١٠٨) .

أشر النصف الثاني من القرن السادس عشر تعاوناً عسكرياً عثمانياً سعدياً في بلاد المغرب وفي شواطئ مضيق طارق، كان من أبرز نتائجه إنهاء الحكم الوطاسي في فاس والضغط على أسبانيا في الجيوب المحتلة من قبلها في شمال أفريقيا ، وفي المقابل أدى ذلك الى تعاون برتغالي أسباني من أجل زعزعة الاستقرار في الأقاليم العثمانية وتقديم الدعم لهذا الطرف أو ذاك (١٠٩) . وكانت تلمسان تشكل مشكلة دائمة لولاة الدولة العثمانية ، وعندما عين حسن باشا بن خير الدين بربروسا في عام ١٥٤٤حاول معالجة الأوضاع فيها بعزل أبي زيان أحمد الثاني الموالي للأسبان وتعيين الملك الحسن ، أحد إخوته وتقديم الحماية والإسناد ضد مؤامرات الأسبان الداعمة لأخية ابي زيان(١١٠). بيد أن هلامية السلطة العثمانية وعدم استقرارها في تلمسان دفع السلطان الشريف محمد الشيخ السعدي إلى تجهيز جيش كبير في ١٥٥١بقيادة ابنه محمد الحرار ومصاحبة ابنيه الآخرين مولاي عبد القادر ومولاي عبد الرحمن، ودخل تلمسان وسط ترحيب الأهالي واستقبالهم تحت ذريعة الجهود لطرد الأسبان من وهران ، وكان من المنتظر أن يتقدم الجيش المغربي إلى الشرق ،إلا أن قائد الحملة اكتفى بذلك وقفل راجعاً إلى بلاده وترك حامية صغيرة في تلمسان على رأسها أخيه مولاي عبد القادر(١١١) .وأسرع حسن باشا الذي آله جداً غدر بني زيان ، في إسناد فرقة عسكريه إلى حسن قورصو أحد

أتباعه ، فتمكن هذا من قتل قائد الحامية المغربية مولاي عبد القادر وطردهم من تلمسان التي أصبحت تخضع مباشرة لحكم والي الجزائر حسن باشا وانتهى فيها حكم الأسرة الزيانية السيئة الصيت(١١٢) .

وكان تعيين حسن باشا والياً للجزائر في حياة أبيه اختياراً صائباً من قبل الباب العالي وفاءً لهذه العائلة العميقة الولاء للعرش العثماني ، فقد اهتم بإعداد الجيش وتدريبه وتأمين الخدمات الصحية والثكنات العسكرية والاهتمام بتحصين المدينة ، إلا أن الحكومة العثمانية لم تلبث طويلا عليه أذ استدعته إلى إسطنبول ربما بشكوى أو تذمر من السفير الفرنسي لدى السلطان سليمان ، بدعوى إن حسن باشا يزمع الانفصال بالجزائر، لاسيما إنه كان من أم جزائرية . ويبدو أن الموقف العصيب الذي تعرض له العاهل الفرنسي هنري الثاني ١٥٤٦-١٥٥٩ في أوربا وطلبه المساعدة العاجلة من حسن باشا بالإسراع في مهاجمة الأسبان في وهران ، كان وراء الغضب الفرنسي عليه(١١٣) . إن التوجس السلطاني الذي أدى إلى تنحية حسن بن خير الدين عن الجزائر جانبه الصواب تماماً ذلك ، إن الجزائر فتحت بسيوف آل بربروسا دون مساعدة من أحد، ألا يكفي تقديمها دون مقابل إلى الدولة العثمانية أن يشعر السلطان بالثقة المطلقة باستمرار إخلاص آل بربروسا ؟.

عين صالح باشا على الجزائر عقب استدعاء حسن باشا بن خير الدين ، وكان من أخلص أتباع آل بربروسا وكان تعيينه بدعم من السفير الفرنسي في إسطنبول (١١٤) . وكان له الفضل الأكبر في اخضاع الدواخل الجزائرية للسلطة العثمانية بالقضاء على إستقلال إمارتي بني جلاب في توقرت ، وبني وارجلان الأباضيين في ورقلة في عام١٥٥٢وألزمهما دفع ما كان يجب عليهما دفعه للسلطة العثمانية في الجزائر مقابل احترام المذهب الأباضي لاسيما في ورقلة (١١٥) . غير أن أهم أعمال هذا الوالي هو احتلال فاس وطرد محمد الشريف محمد المهدي السعدي منها وتنصيب أبو حسونه أخر أبناء الحسن بن علي الوطاسي، الذي هرب بعد سقوط أخيه أحمد الى شارل الخامس في ستراسبورغ ومنه الى البرتغاليين دون نجاح كبير، حاكماً عليها نائباً للسلطان العثماني في كانون الثاني (يناير)١٥٥٤(١١٦). ولم يتمكن ابو حسونة الاحتفاظ بالسلطة بعد انسحاب الريس صالح لأكثر من تسعة أشهر إذ تمكن السعديون من قتله وإعادة احتلال

فاس في أيلول(سبتمبر)١٥٥٤ وانتهى في المغرب حكم الأسرة المرينية(١١٧).

وظلت بكلربكية الجزائر منقطعة براعما يليها من الأقاليم العثمانية مع بقاء تونس تحت حكم الحفصيين وطرابلس الغرب تحت سيطرة فرسان القديس يوحنا . وكانت طرابلس مدينة عظيمة الأهمية لمختلف القوى المتصارعة، إذ عدها فرسان القديس يوحنا موقعا متقدماً في الدفاع عن العالم المسيحي ، فيما عدها الإمبراطور الروماني إحدى عيني العالم المسيحي على الشرق الإسلامي ، وان استبقاء الاستمكان منها يؤمن الحماية لممتلكاته في إيطاليا لاسيما لجزيرة صقلية القريبة ، فضلاً عن تأمين الملاحة في البحر المتوسط ، ومنها يمكن تقديم الدعم للحكم الحفصي الموالي له في تونس ،أما أهميتها بالنسبة للاستراتيجية العثمانية فإنها تشكل نقطة ارتكاز لقوى (الشر) تقع بين الممتلكات العثمانية ، وهي للجميع مدينة ذات أهمية اقتصادية قصوى(١١٨) .

تقع مدينة طرابلس ضمن إقليم واسع على الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط في نهايات شبكة من طرق المواصلات البرية القادمة من أواسط القارة الأفريقية ، وتلك البحرية التي تربط الأقاليم في شمال البحر المتوسط بجنوبها التي كانت فعالة وذات أهمية اقتصادية على مر العصور، وبذلك كانت هذه المدينة ملتقى التجار الذين كانوا يأتون بمختلف أنواع البضائع ومختلف الثقافات مما أورثها ثراءً كانت تحسد عليه **"كانت هناك تجارة واسعة في المدينة بسبب قربها من نوميديا وتونس بالإضافة إلى عدم وجود مثيل لها على امتداد الشاطئ ﴿الجنوبي للبحر المتوسط﴾ حتى الإسكندرية واعتاد تجار مالطا والبندقية وصقلية استعمال مينائها ، وترتادها السفن الحربية بسبب تجارها المهرة...وكانت شوارعها أكثر تنظيماً من تونس"(١١٩)**. وكانت الأسلحة والزرد والدروع والخوذ والسيوف تأتيها من أقاليم ألمانيا ولومباردي ، والأقمشة الصوفية والقطنية والحريرية والكتانية والورق والزجاج والعطور والخرز بألوان متنوعة من مختلف جهات أوربا، مقابل سلع وبضائع أفريقيا التي كان عمادها الذهب والرقيق والجلود والريش والزباد والعاج (١٢٠) .وتنوع تجار طرابلس أعراقاً فمنهم العرب والأتراك واليهود وبعض المسيحيين من الأمم الأخرى ،وعلى العموم كانت أرباحهم مجزية لاسيما عندما تكون الطرق الصحراوية والبحرية آمنة(١٢١) .

وكان الثراء الاســـــطوري(١٢٢) الذي تمتع به سكان المدينة في مطلع القرن التاسع

عشر مثار أطماع الطامعين والباحثين عن الثروات ، وإلا ماهي دوافع بدرو دي نافار لغزو هذه المنطقة البعيدة جداً عن إسبانيا وجيوبها في الشمال ألأفريقي بمصاحبة عدد من المالطيين والإيطاليين الذين كانوا عيون على المدينة عن سابق معرفة ، إذا لم يكن ما اشتهرت به من ثراء ؟ . وكان الحكم الأسباني الذي لم يمتد إلى خارج أسوارها مدعاة لتحول الحركة التجارية الساحرة عنها الى وتاجوراء وجنزور ومدينة مصراته المجاورة ، التي اضطلعت بالدور ذاته الذي كان تقوم به طرابلس بمقايضة السلع القادمة إليها من أوربا بتلك التي يحملها تجار الدواخل الصحراوية ، ثم تقايض هذه السلع مع ما يحمله التجار الأتراك أو ما يمكن تسميته بالتجارة المثلثة على غرار التجارة المثلثة بين أمريكا وأفريقيا وأوربا التي كان عمادها الرقيق المنقول من أفريقيا إلى أمريكا الشمالية (١٢٣).

وفي عام ١٥٣٠وهب الإمبراطور شارل الخامس مدينة طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا بعد أن أجلاهم السلطان سليمان من رودس(١٢٤)، شريطة أن يقبلوا بمالطة مقراً لهم وأن يؤدوا يمين الولاء للإمبراطور . والفرسان هم أعضاء رهبانية متطرفة في تعصبها نشأت في عام ١٠٩٩م في القدس وهم يتكلمون بثماني لغات أي أنهم ينتمون إلى أمم أوربية شتى غالباً ما كانت في حالة حرب فيما بينها ، بيد إنهم كانوا يشكلون قوة البابوية الرئيسية أو جناحها العسكري الضارب . وكان الإمبراطور يعتقد إن بعمله هذا قد حصن الحوض الغربي من البحر المتوسط ضد الموريسكيين والقوى الإسلامية المختلفة(١٢٥).وحاول الفرسان أن يعيدوا طرابلس إلى حياتها الطبيعية ومركزها الاقتصادي المتميز دون نجاح يذكر، كما حاولوا التوسع في محيطها واستولوا على جنزور والزاوية بشكل مؤقت ، ولم تتعد سيطرتهم الفعلية أسوار المدينة ، إذ لم يترك لهم خيرالدين خياراً ، وكان ضغطه عليهم كبيراً، إذ تمركز مراد أغا في تاجوراء ، وهي قلعة صغيرة لا تبعد كثيراً إلى الشرق عن مدينة طرابلس ولها ميناؤها الخاص(١٢٦) .

كان بقاء فرسان القديس يوحنا في طرابلس تحدياً كبيراً لهيبة الدولة العثمانية ومكانتها العالمية ، لذا صارت تحشد القوات لاستئصال هذا الجسم الغريب منذ عام ١٥٣٨. وليس من الصواب الاعتقاد إنها كانت بحاجة لمن يذكرها بأهمية طرابلس وخطورة موقعها وأهمية اقتصادها كما يذهب البعض(١٢٧) . وسواء أكان قدوم درغـوث باشا وسنان باشا بدعوة من أهل طرابلس لتخليصهم من أعمال الفرسان

المنكرة ، أم إنهما جاءا تساوقاً مع إستراتيجية الدولة العثمانية في زمن السلطان سليمان بإلحاق الهزيمة بالقوى الصليبية في مختلف الجبهات ، فإن جهودهما تظافرت مع جهود مراد أغا في تاجوراء لتخليص طرابلس من براثن فرسان القديس يوحنا ، لاسيما عقب فشلهما في احتلال مالطة وتوفر السلاح لديهما ولم تكن الإستراتيجية العثمانية إزاء طرابلس منزهة عن الأغراض الاقتصادية تماماً(١٢٨) .

في عام ١٥٥١ حاصرت القوات العثمانية فرسان القديس يوحنا في المدينة التي دكت بالمدفعية دكاً متواصلاً حتى أعلن الفرسان استسلامهم وطلبوا السماح لهم بالجلاء عنها ، وعين العثمانيون عليها مراد أغا الذي نجح في مد سيطرته جنوباً إلى غريان ومنها إلى الجنوب التونسي فأخضع جزيرة جربة وصفاقس ومون استير والقيروان وشرقاً إلى مصراتة(١٢٩) ، ومن صفاقس انتقلت مجموعة من الناس للسكن في طرابلس وأصبح لبعضهم شأن كبير في الحياة الاقتصادية والسياسية في المدينة في مقبل الأيام، ومن بينهم أسرة المكني الشهيرة التي سيكون لها دور في تجارة وسياسة الصحراء في القرن التاسع عشر (١٣٠) . واسندت إدارة طرابلس لمراد أغا الذي ظل يديرها حتى وفاته في عام ١٥٥٥، وعين بعده درغوث باشا الذي اشترك في فتحها ، وشهدت المدينة في عهده نهضة اقتصادية وعمرانية وأعادها مركزاً تجارياً مهماً لتجارة الصحراء بتوثيق علاقاته مع مملكة البورنو ومملكة فزان المستقلة(١٣١).وكان الفتح العثماني للمدينة ضربة قاصمة للوجود المسيحي في شمال أفريقيا. ومن أجل استمرار وتدارك هذا الوجود عرض الأسبان مرفأ المهدية(أفريقيا) البالغ الحصانة والمنعة والجمال، الذي سيطر عليه أندريا دوريا في معركة طاحنة في عام ١٥٥٠وطرد منه درغوث شر طرده ،على فرسان القديس يوحنا ،إلا أنهم رفضوه بسبب عدم قدرتهم الدفاع عنه بسبب نشاط الريس سنان والريس درغوث والريس بيالي باشا في القسم الغربي من البحر المتوسط ومساندة البحرية الفرنسية لهما (١٣٢).

ولما استفاق المسيحيون من الصدمة التي أحدثها فتح مدينة طرابلس عزم الإمبراطور وفرسان القديس يوحنا والقوى الأخرى استعادتها في محاولتين ، كانت الأولى في عام ١٥٥٢ ، والثانية في عام ١٥٦٠ أي بعد انتهاء الحروب الإيطالية وعقد معاهدة كاتو كمبرسيس ، وهي حملة ضخمة لدرجة تثير الرعب في النفوس ، أعد لها

في موانئ ايطاليا وإسبانيا ومالطة ، دعا لها البابا بيوس الرابع(بعد وفاة الإمبراطور شارل الخامس وتولي ابنه فيليب الثاني العرش في أسبانيا) أطلق عليها (الحملة المقدسة) وشارك فيها عدد من الأسماء المسيحية الإيطالية الكبيرة ، إلا إنهم أصيبوا بالهلع والرعب عندما عرفوا إن الأسطول العثماني في طريقه اليهم ، ولم يكن هم أحدهم أكثر من أن ينجو بنفسه ولم تثمر سوى احتلال جزيرة جربة التونسية بصورة مؤقتة (١٣٣). وكانت الحملة على جزيرة جربة كارثة بكل المقاييس حلت بالغزاة ، وكان من نتائج فشلها أعداد هائلة من القتلى الاسبان الذين صنع أهل جربة من رؤوسهم هرماً تذكارياً بقي قائماً قبالة جربة حتى عام ١٨٤٨عندما سمح أحمد باي بنقل هذه الجماجم إلى إحدى المقابر المسيحية(١٣٤).وظلت بحرية طرابلس بقيادة رياس البحر من أمثال قلج علي وجعفر آغا تثير الرعب في البحر المتوسط إلى الدرجة التي كان فيها البحارة المسيحيون يتبادلون الأماني عند الوداع بالقول "**الله يرعاكم وينصركم وينجيكم من قوادس البحرية الطرابلسية** ".ولم تفت في عضدهم الخسارة التي منيوا بها في معركة ليبانتو إلى جانب الأسطول العثماني، وكان المسيحيون لاسيما فرسان مالطا وفرسانية سان ستيفانو(أسسها كوزمو دي مديشي في توسكانيا في القرن الخامس عشر) حتى نهاية القرن السادس عشر يردون على هجماتهم بهجمات مماثلة (١٣٥) .

بعد خمس سنوات من هذا الحدث أي في أيار(مايو) ١٥٦٥ وبعد محاولة جادة قادها حسن بن خير الدين في عام ١٥٦٣ لطرد الأسبان من وهران، فشلت في تحقيق أهدافها بسبب ضراوة المقاومة الأسبانية وتقاعس الجند الإنكشارية المشاغبين(١٣٦) ، قرر السلطان سليمان أن يوجه ضربة حاسمة لفرسان القديس يوحنا القوة المسيحية الرئيسية المتعصبة في مالطا ،وبعد معركة ضارية شرسة استمرت ستة أشهر تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة ودفع فيها العثمانيون تضحيات كبيرة من بينها القائد والمجاهد البحري العثماني والي طرابلس الريس درغوث باشا الذي كان مسلماً بالولادة وهو تلميذ خير الدين العتيد، واستعصت الجزيرة على القوة العثمانية المهاجمة ، وظل(وجر الأفاعي السامة) صامداً في هذه الجزيرة المشؤومة ،ومصدر إزعاج لكل المناطق المأهولة في شمال أفريقيا حتى دكها نابليون في عام ١٧٩٨وهو في طريقه لغزو مصر (١٣٧) .

كان الاستيلاء على طرابلس عملاً بالغ الأهمية للإستراتجية العثمانية و تحدياً كبيراً للقوى للمسيحية في هذه الجهات وأمست تونس به محاطة بالممتلكات العثمانية بعد تقدم درغوث باشا واستيلائه على مدن قفصة وسوسة والموناستير والقيروان ذات الأهمية الدينية والحضارية الكبيرة في جنوب البلاد، بمساعدة السكان المحليين ، وربطت هذه المدن بحكم إيالة طرابلس حتى العام ١٥٧١ عندما أمر قلج على باشا بفصلها عنها بناءً على رغبة الأهلين ، وأصبحت أيام الوجود الأسباني في حلق الواد معدودة. وفي نيسان(أبريل) ١٥٦٩ تمكنت قوة جزائرية بقيادة قلج علي تلميذ درغوث ومساعده وخليفته ، بدعم من القوى المحلية ممثلة بأبي الطيب الخضار وزير أبي العباس أحمد الحفصي ، من دخول تونس (العاصمة) وهروب الأخير إلى الأسبان في حلق الواد المحصنة تحصيناً شديداً(١٣٨) . وألحقت تونس وتوابعها بالحكم الجزائري وكانت تدار من قبل رمضان بك بكونه نائباً عن حاكمها (١٣٩) .إلا إن الأسبان قابلوا التحدي العثماني بتحدي مماثل وتمكنوا من استرجاع تونس إلى الحكم الحفصي وطرد حاكمها العثماني رمضان بك إلى القيروان في عام ١٥٧٣ ، وعمل الدون جوان قائد الحملة الأسباني على تحصين المواقع المهمة ودعم حكم بني حفص . وكان إعادة احتلال تونس وطرد حاكمها العثماني مؤامرة حاكها الأسبان بالتعاون مع القوى المحلية مثل شيخ بني عباس وحاكم فاس الذين أسرعا بالاعتراف بحكم الأسرة الحفصية(١٤٠). واستمرت تونس تحت الوصاية الأسبانية حتى أيلول(سبتمبر)من عام ١٥٧٤عندما استرجعها العثمانيون في حملة مشتركة من الجيش العثماني بقيادة سنان باشا والأسطول بقيادة قلج علي وأمير أمراء الجزائر رمضان باشا وأمير أمراء تونس حيدر باشا وأمير أمراء طرابلس مصطفى باشا(١٤١) .

بدا حصار حلق الواد في آب(أغسطس)١٥٧٤ ، وضربت المدفعية العثمانية القلعة أربعين يوماً متواصلة ، وبعد مصاعب جمة وخسائر بشرية بين الطرفين تجاوزت العشرين ألف بينهم سبعة آلاف أسباني ، استسلمت المدينة وتم القبض على السلطان محمد الحفصي وعلى قائد القوة الاسبانية (١٤٢). ولم يبق بيد الاسبان إلا حصنا باب البحر وشاكلي اللذان كان فتحهما بعد حصار طويل ، مظاهرة إسلامية ضد الوجود الاسباني في شمال أفريقيا شارك فيها الوزير سنان باشا بنفسه كما شارك فيها أميران

سعديان جاءا يطلبان المعونة من السلطان العثماني للتخلص من أخيهما الموالي للاسبان والبرتغاليين(١٤٣).وبذلك ضاع حلم الملوك الأسبان ومن دار في أفلاكهم في إقامة إمبراطورية أسبانية مسيحية في شمال أفريقيا التي لم يبق لهم فيها سوى وهران والمرسى الكبير اللتان بقيتا بأيديهما حتى مطلع القرن الثامن عشر (١٤٤) .

شكلت إيالات شمال أفريقيا الثلاث إوجاقات الغرب (غرب إوجاقلري)وكانت الإدارة العثمانية فيها تختلف عن بقية إيالات الدولة ، إذ اعتمدت الدولة فيها فضلاً عن الإنكشارية ، على أعمال الجهاد البحري (القرصنة)الموجه ضد الممالك الأوربية لاسيما أسبانيا انتصافا للمأساة التي قاساها الموريسكيون ، وكانت هذه الإوجاقات تشارك في جهد الدولة الحربي فضلا عن جهودهم في الجهاد البحري ،كما كانت تشارك في دعم خزانة الدولة بفروض وجعول على شكل هدايا تقدم كل سنتين أو ثلاث سنوات ، مقابل ما تقدمه الدولة من منح على شكل سفن ولوازم حربية لهذه السفن من "ترسانة الدولة العامرة "(١٤٥) .إلا انه في الربع الأخير من القرن السادس عشر صار أمراء إوجاقات الغرب يتصرفون باستقلالية واضحة عن العاصمة ولم يتورعوا عن مهاجمة السفن العائدة لفرنسا وإنكلترا والبندقية ،وهي الدول التي كانت تربطها معاهدات ومواثيق بالباب العالي ، طلباً للمغانم المادية وحسب بعد أن ضعفت فكرة الجهاد البحري الموجه ضد أسبانيا والبرتغال بضعف هاتين الدولتين ، مما أدى إلى ازدياد شكاوى هذه البلدان من أعمال هؤلاء الأمراء ونتيجة لذلك أصدر السلطان العثماني عدد من الفرمانات السلطانية ، التي لم يعرها هؤلاء بالاً " **إذا كنت معزولاً فإنني لم أهتم بأحـــد ولن أتوقف عن مهاجمة السفن وأسرها** "(١٤٦)، أجاب الشاويش أحمد باشا . ولما عزل عن منصبه وعين بدله إستانكولي أحمد باشا لم يلتزم الأخير بالاتفاقات المعقودة مع هذه الدول وصار يمارس القرصنة بنفسه على نطاق واسع (١٤٧) . وكانت هذه الأحداث دلالات على ضعف الإستراتيجية العثمانية في إوجاقات الغرب وتراخي قبضتها على أقاليمها البعيدة. وازداد مع الوقت ظلم الانكشارية وتعسفها ضد السكان المحليين ، ففي طرابلس التف السكان حول شخص ادّعى إنه المهدي المنتظر يدعى يحيى ،في انتفاضة عارمة ضد الأغا وإنكشاريته، مما دفعهم إلى الاستنجاد بالباب العالي، الذي أوعز إلى القبطان باشا بالتحرك إلى طرابلس وإخمادها، وعلى الرغم من البسالة

التي قابل بها المهدي إلا إنه أخفق في القضاء عليه كما أخفق بعده أمير أمراء الجزائر أحمد باشا الذي قتل في إحدى المعارك معه ، وقتل هو الآخر غيلة من قبل شيخ إحدى قبائل الجبل الغربي (١٤٨).

وعلى الرغم من جهود العثمانيين المضنية والقوى المؤيدة لهم ، الا إنهم أخفقوا في إلحاق المغرب ألأقصى في إمبراطوريتهم الهائلة . ويعود ذلك الإخفاق لعدة عوامل بعضها خارجي والآخر موضوعي ، أهمها إن الدولة العثمانية في القرن السادس عشر أصبحت إمبراطورية عظيمة الاتساع ، وكانت جيوشها تقاتل في جبهات متباعدة في آن واحد ولم يكن اهتمام السلاطين والقواد ورجال الأسطول منصباً في اتجاه محدد . كما إن منعة البلاد المغربية وبعدها الهائل عن مركز الدولة مكن سلاطينها من الدفاع المجيد عن استقلالهم ، بالاعتماد على شرعية حكمهم بكونهم من سلالة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) وبالتالي هم في موقف شرعي يؤهلهم إعلان نديتهم للدولة العثمانية التي اكتسبت شرعيتها من الأعمال الجهادية التي نشأت من أجلها تارة ، أو بالتحالف المرحلي مع أعدائها من البرتغاليين والاسبان تارة أخرى. كما أن الدولة العثمانية أناطت ببكلربكية الجزائر مهمة إخضاع الشمال الأفريقي وهي مهمة ضخمة جداً على قوة عسكرية كانت بالكاد تدرأ الأخطار المحيقة بها ، مع الأخذ بالحسبان أن ما حققته هذه البكلربكية ما كان أن يتحقق لو تحالف إزائها أعداؤها . وعلى أية حال فإن الدولة العثمانية انصاعت للأمر الواقع تحت ظروف تراجعها العسكري والاقتصادي والإداري واعترفت باستقلال المملكة المغربية وتبادلت معها السفراء والهدايا في الربع الأخير من القرن السادس عشر، تلك الهدايا التي يشوبها بين الطرفين سوء الفهم ، ففي الوقت التي يعدها الجانب المغربي ضمن الالتزامات التي تتطلبها اللياقة الدبلوماسية ، نظر إليها الجانب العثماني على إنها ضرائب واجبة الدفع ، ومع ذلك فإن الباب العالي كان في هذه المرحلة أعجز من أن يجبر سلطان فاس على دفع ما لا يريد دفعه(١٤٩) .

إلا إن العوامل الموضوعية أهم أسباب الإخفاق العثماني ، ذلك أن الدولة العثمانية دخلت في نهاية حكم السلطان سليمان في طور الانحدار وتراجع إداء مؤسساتها الوظيفي وزاد من حدة هذا العامل وفاة العاهل العظيم واعتلاء عرش آل عثمان من لا يقود الجيوش بنفسه من أمثال سليم الثاني (السكير)الذي كان بداية سيئة

لسلسلة مكونة من ٢٧ عاهلاً أكثر سوءاً(١٥٠) ، وفقدان الدولة لعدد من قادتها العظام ورياسها من أمثال خير الدين بربروسا ودرغوث باشا ومراد باشا وسنان باشا وبيالي باشا وغيرهم ، ولم يظهر من يضاهيهم كفاءة ومقدرة ، وأثبت الأيام إن الدولة العثمانية غير عصية على الهزيمة ، لاسيما في هزيمة إسطولها المدوية في معركة ليبانتو في عام ١٥٧١(١٥١) ، وأصبح جهد الدولة منصباً بعد ذلك على المحافظة على المكتسبات الإقليمية وهضمها وجمع الضرائب المختلفة منها لإدامة الحياة الباذخة الماجنة لسلاطينها وأمرائها في عملية نهب إقطاعي لم يسبق له مثيل في الشرق ، وليس لاضطراد التوسع والفتح ، أو مواكبة التقدم الفكري العلمي العالمي الذي صار ينتقل بالتدريج بخطوات واسعة إلى أوربا، وأضحت جيوشها تتراجع أمام أمم أمعنت في هزيمتها في السابق بيد أنها نفضت عنها غبار الماضي وتحولت إلى مرحلة الهجوم(١٥٢) .

الخاتمة

بدى من ذلك إن الإستراتيجية العثمانية التي كانت إستراتيجية جهادية برية موجهة ضد(دار الكفر) التي تعني آنذاك الممالك ألمسيحية المصاقبة لها لاسيما في إقليم الليبانتو وأوربا الشرقية لم تكن موجهة إلى أقاليم شمال أفريقيا حتى مطلع القرن السادس عشر ، إذ كانت هذه الأقاليم دولاً إسلامية منذ أمد بعيد ، ولم يكن في حسبان سلاطين آل عثمان نقل جهادهم إلى الجزء الغربي من البحر المتوسط ،حتى بعد النكبة التي مني بها المسلمون في الأندلس وعلا صريخهم ، والاعتداءات التي تجاوز بها الأسبان والبرتغاليون على أراض كانت إسلامية رسخ فيها الإسلام في وقت مبكر ، لذا يمكن القول إن آل بربروسا هم من جرجر الدولة العثمانية وأدخلها إلى شمال أفريقيا مقابل أن قدم هؤلاء بلاد المغرب الأوسط (الجزائر)التي أخضعوها بجهودهم الذاتية الخالصة دون مساندة من أحد ، وقدموا معها إسطولهم ومعه ثلة من الرياس المجربين الذين لا يهابون أحداً ، بعد أن أدركوا بثاقب بصائرهم إن ما يحتاجون إليه لا يمكن لغير الدولة العثمانية تأمينه ، ألا وهو الغطاء الشرعي الذي يجعل منهم قوة مقنعة للقوى المحلية ويجعلهم أشد قوة في فتح جبهة جديدة ضد شارل الخامس الذي دمج العرش الأسباني في الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وهي جبهة أدت أساطيل الدول فيها دوراً مهما مما حتم على الدولة العثمانية الاهتمام بالأسطول الذي بلغ تحت قيادة خير الدين درجة لم يبلغها من قبل ،

ودمجت فيه جهود عدد من (القراصنة) السابقين وأغلبهم من المهتدين في إستراتيجيتها التي كانت في هذا الجزء امتدادا لجهودهم في مقارعة الأسبان والبرتغاليين ، وطرهم من الجيوب التي أقاموها على طول شواطئ شمال أفريقيا فضلاً عن المنافع المادية التي دفعت بهم لمثل هذا النشاط، ولا يمكن غض الطرف عنها ، فقد كان الرياس العثمانيون قراصنة في جزء من الوقت وفي الجزء ألآخر كانوا قادة في الأسطول العثماني أو أمراء في أقاليم شمال أفريقيا .

خلقت هذه الظروف مجتمعة في شمال أفريقيا وضعاً خاصاً يمكن أن يعد عودة لما كان عليه الوضع في الشمال الأفريقي قبل دخول آل بربروسا ، وبواكير لظهور الدولة الحديثة هناك ربما بوقت أبكر مما وقع في كثير من دول أوربا، ذلك إن الدولة العثمانية منحت الشمال الأفريقي قسطاً وافراً من الامتيازات بما في ذلك الإدارة الذاتية ، وهامش واسع من الحرية طيلة القرن السادس عشر والقرنين اللاحقين ، ولم يخش العثمانيون منها بعد أن هزمت القوى المحلية المتعاونة مع الأسبان والبرتغاليين ، مما سهل على الإنكشارية وهم نمط من القوة أدخلها العثمانيون الى الشمال ألأفريقي أصبحوا عامل فوضى وعدم التزام أينما حلوا ، بالتعاون مع القوى المحلية من الاستقلال بهذه الأقاليم نيابة عن السلطة العثمانية وإقامة دول تمتعت بقدر كبير من الاستقلالية في إقامة علاقات اقتصادية ودبلوماسية وتحالفات عسكرية متكافئة مع الدول الأخرى ، وكانت قادرة تماما على الدفاع عن نفسها ضد الأطماع الخارجية بل وكانت مرهوبة الجانب من قبل هذه الدول .

Abstract

The Ottoman Strategy in North Africa in Sixteenth Century .

The researcher had taken up in this study the Ottoman strategy in north Africa in sixteenth century from Morocco to Algeria and Tunis to Serit Gulf , this area is dominating on eastern Mediterranean see which was named Cruisers share , and it faced Italy ,France and Spain, was preferred with its economic activity because its connection with the back large desert Africa, and connected with Europe trance Mediterranean see in another side .This area had connected with economic and political European developments in the beginning of modern periods , because its geographical nearness, first , and it became sanctuary of the fugitive Muslims and Jews from Spain and Portugal, whereof became it

Altruistic Muslim focus of attentions, practically Barbarossa's Family who were due in diligence and activity and insistence to attach this area with Strategic of Ottoman Empire which became universality state in sixteenth century , and its forces were fighting in three continent in the same time. The Ottomans directed to this area after Barbarossa Family had surmount the obstacles, and they had imposed them domination and them authority and military supremacy, and the western part of Mediterranean see became ones of territories which the Ottomans had from it advanced to result upon military and political developments in the western part of Europe during sixteenth century, particularly Sultan Suleiman the first who had appreciated Barbarossa Family's efforts, then he incorporated them efforts within his state, this incorporation was produced active dynamic strategy , not in north Africa only ,but on all the world in that time .

هوامش البحث

(١) نقلاً عن جان كلود زليتنر ، طرابلس ملتقى أوربا وبلدان وسط أفريقيا ١٥٠٠-١٧٩٥،ترجمة جاد الله عزوز الطلحي ، (طرابلس، ٢٠٠١) ،ص ٢٤-٢٨؛ شارل فيرو، الحوليات الليبية ،ترجمة محمد عبد الكريم الوافي ، الطبعة الرابعة ،(بنغازي ،١٩٩٨)،ص،٧٥

(٢) عزيز سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ،ترجمة محمود على عامر ،(بيروت ،١٩٨٣) ،ص١٢٨-١٢٩ ؛أبو القاسم سعد الله ،صورة لمدينة الجزائر في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ، في الدولة العثمانية بدايات ونهايات ،أوراق الندوة العلمية التي عقدت في جامعة آل البيت١٨-١٩/١٠ /١٩٩٩ ، تحرير محمد أرناؤوط وهند أبو الشعر ،(عمان ،٢٠٠١)، ص١٧٨.

(٣) دبل يو بوفيل ، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ترجمة الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز،(بنغازي ،١٩٨٨)ص٢٥٢،٢٤٦-٢٥٣.

(٤) إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار، (القاهرة،١٣١٢هـ)،ج١ ، ص٤١٩ ؛أحمد توفيق مدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢، الطبعة الثانية (الجزائر،١٩٨٤) ،ص١٢٦-١٢٩.

(٥) الفونصو روسو ، الحوليات التونسية ، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي ،(بنغازي ،١٩٩٢) ،ص٨٦ ؛ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر الحديث ، الطبعة الرابعة ، (بيروت، ١٩٨٠) ، الجزء الثالث ، ص ٤٧.

(6) Sources Indites de L` Histoire du Moroc Espagne,(Paris,1948),T.MP.83;
عبد الكريم كريم ،المغرب في عهد الأسرة السعدية،(الدار البيضاء ، ١٩٧٧)،ص٦٠ ؛ شارل أندري جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية(تونس الجزائر المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي حتى ١٨٣٠) ، ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة، (تونس،١٩٧٨)ج٢،ص٢٥٥.

(٧) الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ، (الدارالبيضاء،١٩٧٦) ،ج١،ص٣٨؛ شوقي عطا الله الجمل ،الغرب العربي الكبير في العصر الحديث، (القاهرة ،١٩٧٧)،ص٨٥ ؛ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، المرجع السابق ،ص٤٨ .

(٨) جان كلود زليتنر ، المرجع السابق ، ص ٢٥.

(9)J.M. Gomez, A Concise History Of Spain ,(Madrid,1966),p.265-268; Paul Coles,The Ottoman Impact on Europe,(London,1968),p.125-130.

(10)H.V. Livermore ,A New History of Bortugal ,(London,1966),p. 133-134.

(١١) نقلاً عن شوقي عطا الله الجمل ، المرجع السابق ،٤٢-٤٣.

(١٢) نقلاً عن محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ،(بيروت،١٩٧٩)،ص13؛
J. H. Elliot, Imperial Spain 1469-1716,(London,1981),41- 42.

(13) Ibid. p.38
عبد القادر أحمد اليوسف، علاقات بين الغرب والشرق بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر،(بيروت،١٩٦٩)، ص ٢٥٥؛ عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة ، (القاهرة،١٩٨٣)،ص١١٦ ؛أتوري روسي ،طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان القديس يوحنا ، ترجمة خليفة التليسي، (طرابلس،١٩٦٩)، ص١٧ ؛ ينظر كذلك جمال الجازوري ،تأملات حول سياسة الإبادة التي اتبعها ملوك الأسبان ضد المورسكيين ،مجلة الجامعي ،العدد١١،(طرابلس،الربيع،٢٠٠٦)، ،٢٠٣-٢٠٨.

(١٤) نقلاً عن شارل فيرو،المصدر السابق،ص٧٤.

(١٥) المصدر نفسه ، ٧٧؛ الحسن بن محمد الوزان (ليو الأفريقي) وصف أفريقيا، (الرباط،١٩٨٢)،ج٢، ص٥١؛أتوري روسي ، طرابلس تحت حكم الأسبان ،ص١٧.

(16) J. H.Elliot, op.cit.,p.33-37,49; أحمد توفيق مدني ، المرجع السابق ،١٢٧.

(١٧) الحسن الوزان ، المصدر نفسه،ج٢،ص٣٤

(١٨) المصدر نفسه ج٢ ،ص٣٤؛ دبل يو بوفيل ، المرجع السابق ، ص٢٤٥؛ أبوالقاسم سعد

الله ،المرجع السابق ،ص١٧٧ ؛ J.H.Elliot,op.cit.,p.40; Poul Coles,op.cit., p. 156

(١٩) ينظر عزيز سامح ألتر ،المرجع السابق ، ص٤٤ وما بعدها ؛كاميللو مانفروني،العلاقات البحرية بين ليبيا وإيطاليا،ترجمة إبراهيم أحمد المهدوي ،(بنغازي ،١٩٩٢)،ص٧٤ .

(٢٠) عزيز سامح ألتر، المرجع نفسه،ص١٠٥-١٠٦؛ محمد خير فارس،المرجع السابق ، ص١٦ ؛ Stanford Show, History of Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol.I,The Empire of Ghazes, (Cambridge,1977) , 60-65.

(٢١) يختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في أصل آل بربروسا ،ففي الوقت الذي ينسبهم فيه المؤرخون المسلمون إلى عائلة مسلمة معروفة ، ينسبهم المؤرخين الأوربيون إلى أصل مسيحي أو يهودي ، . وعلى أية حال فإن كونهم من أصول غير إسلامية وتحولوا إلى الإسلام بمحض إرادتهم لا ينقص من قدرهم ، أنظر جان كلود زليتنر ، المرجع السابق،ص٣٤؛ عزيز سامح ، المرجع نفسه، ٢٧-٢٨، أتوري روسي ، طرابلس تحت حكم . . . ،ص٤٣؛ كوستانزيو برنيا،طرابلس١٥١٠-١٨٣٥، ترجمة خليفة التليسي،(طرابلس ،١٩٦٩)،٣٤-٣٧ .

(٢٢)عبد العزيز محمد الشناوي ، الدولة العثمانية المفترى عليها ،(القاهرة ،٢٠٠٤)، ج ٢،ص١٨١.

(23)Halil Inalcik, The Ottoman Empire,Conquest Organization and Economy ,Collected Studies, (London,1978),p.5-7;Cloude Cahen,Pre-Ottoman Turkey,(London,1978),p.248-260.

(24)PauL Coles, The Ottoman Impact on Europe ,(London,1968),p.20 .

(25) J.A.R.Marriot, The Eastern Question An Historical Study in European Diplomacy,(Oxford,1969),p.43; ينظر ،كذلك ، يلماز أوزوتونا تاريخ الدولة العثمانية ،ترجمة عدنان محمود سلمان ،(إسطنبول ،١٩٨٨)، ج١،ص ١٤٩-١٦٦

(٢٦) أنظر محمد فريد ، الدولة العلية العثمانية ،(بيروت،١٩٧٧) ، ص ٥٥ومابعدها.

(٢٧)تنتسب هذه الأسرة إلى قلعة النسر في سويسرا الألمانية وأصبح رجالها ملوك ألمانيا عندما حصل ألبرت الثري على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عام ١٢٧٣ وبقيت في الحكم حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عندما أنهت معاهدتا سان جرمان في عام ١٩١٩ وتريانون في عام ١٩٢٠ حكمها في النمسا والمجر.

(٢٨) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ،

الطبعة الحادية عشرة ،بيروت ١٩٨٨، ص٤٣٦، ٤٤٦؛ Ch.Elliot ,Turkey in Europe,(London,1965),p.53-54 .

(29)Stanly Lane-Poole, Turkey ,(Beirt,1966),p.50-55 .

(٣٠) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ،(بيروت،١٩٨٢)،ص ٧٧-٧٨.

(31)Edward S. Creasy ,History of Ottoman Turks,(Beirut,1961),p.122; Stanford Show ,op.cit.,p.76.

(٣٢)عبد القادر أحمد اليوسف ، المرجع السابق ،ص ٢٥٦؛ محمد عبده حاملة ، التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين ١٤٧٤-١٥١٦، (عمان ،١٩٨٠) ،ص٩٩-١٠٠.

(33)A.J.Grant, Ahistory of Europe From 1494 to 1610,(london,1968),209-210.

(34) K.M.Panikar ,Asia and Western Dominance, (london,1953),p.27-28.

(35) Ibid .,p.28-29.

(36) Halil Inalcik ,op.cit., p.129-132;

ميلاد أبو سلامة المقرحي ،تاريخ أوربا الحديث ١٤٥٣-١٨٤٨،، (بنغازي،١٩٩٦)، ص٦٥-٦٦.

(37) H.V.Livermore ,op.cit., p.123-128

عبدالعزيز محمد الشناوي ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ، (القاهرة ،١٩٨٥)، ج١،ص١٢٢-١٢٦.

(٣٨) أحمد عبد الرحيم مصطفى ،المرجع السابق ،ص٩٨،٨٣-٩٩.

(39)Dan O`Sullivan,The Age of Discovery 1400-1500,(New York,1976),p.32-33.

(٤٠) سمي الحلف باسم مدينة فرنسية تقع في الطرف الشمالي الغربي بالقرب من الحدود مع بلجيكا ، وشاركت فيه عدد من الدول ألأوربية مثل فرنسا وإسبانيا والإمبراطورية الرومانية والبابوية لتأديب البندقية . انظر عبد العزيز محمد الشناوي ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ، ص٢٠٤- ٢٠٥.

(٤١) إي دبل يو بوفيل ، المرجع السابق ، ص٢٠٨ ؛ كاميللو مانفروني ، المرجع السابق ، ص٧٤ .

(٤٢) أنظر ، كاميللو مانفروني ،المرجع نفسه ، ص٤٥-٤٨ ؛عزيز سامح ألتر ، المرجع السابق ، ص ٢٧-٣٣.

(٤٣) المرجع نفسه ،٣٥- ٣٦؛ جان كلود زليتنر ، المرجع السابق ، ص ٣٥-٣٦ .

(٤٤) محمد بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، (بيروت،؟) ، ج٤،ص٧.

(٤٥) في المعركة من أجل بجاية ، أصيب الريس عروج بشظية في ذراعه أدت إلى قطعها . أنظر شارل أندريه جوليان ،المرجع السابق ، ص٣٢٩؛ عزيز سامح ألتر، المرجع السابق ،ص٤٥-٤٦.

(٤٦) أحمد توفيق مدني ، المرجع السابق ،ص١٦٥-١٦٧؛ عبد الرحمن محمد الجيلاني ، المرجع السابق ،ج ٣،ص٣٢٦.

(٤٧) عبد الرحمن محمد الجيلالي ، المرجع السابق ،ج٣،ص٤٠-٤٢.

(٤٨) الحسن بن محمد الوزان ، المصدر السابق ، ج٢ ،ص ٣٥؛ أحمد توفيق مدني ، المرجع السابق ،ص١٨٧.

(٤٩) عبد الجليل التميمي "أول رسالة من أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول عام ١٥١٩ "، المجلة التاريخية المغربية،(تونس ، يوليو- ١٩٧٦)،ص١١٧؛ عزيز سامح ألتر ، المرجع السابق، ص٥٨.

(٥٠) عزيز سامح ألتر ، المرجع نفسه،ص٥٨،٤٧-٥٩.

(٥١) شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ،(القاهرة ،١٩٧٢)، ص٨٠ .

(٥٢) أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق،ص١٨٧-١٨٩.

(٥٣)هو الأرشيدوق شارل حفيد الإمبراطور الروماني ماكسمليان الأول ، وحفيد فرديناند وإيزابيلا من طرف أمه ، اعتلى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة بعد ان دمجها في العرش الإسباني باسم شارل الخامس ، ثم عاد وفصل العرشين بين ابنه فيليب الثاني الذي أصبح ملكاً على أسبانيا ، وأخيه فرديناند على النمسا مع لقب إمبراطور.

(٥٤) الحسن بن محمد الوزان ، المصدر السابق ، ج٢،ص٩.

(٥٥) أحمد توفيق مدني ،المرجع السابق، ص١٩٠-١٩١.

(٥٦)عزيز سامح التر، المرجع السابق،ص٦٥-٦٩.

(٥٧) الحسن بن محمد الوزان ، المصدر السابق ،ج٢ ،ص١٠ ؛ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، المرجع السابق ،ج٣،ص٤٤.

(٥٨) شارل أندري جوليان ، المرجع السابق،ج٢ ،ص٣٢٩؛عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، المرجع نفسه،ج٣،ص٤٩؛ عزيز سامح ألتر ، المرجع السابق ،ص٨٤.

(٥٩) أثبتت الأيام أن هذا الأفاق لم يكن أهلاً للثقة التي أودعها فيه خير الدين وكان من أول

الخارجين عليه .ينظر عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية ' ج٢، ص١٨٥؛عبد الجليل التميمي المرجع السابق ،١١٧.

(٦٠)عبد العزيز محمد الشناوي ،الدولة العثمانية ،ج٢،ص١٨٦؛عبد الرحمن محمد الجيلالي ، المرجع السابق ،ج٣،ص٤٦؛ محمد خير فارس ، المرجع السابق ، ص٣٠.

(61) J.M.Gomez,op.cit. ,p.69.

(٦٢) محمد خير فارس ،المرجع السابق ،ص٣٢.

(63)John Lynch ,Spainunder the Habisburg,Vol. II ,(Oxford,1967),p.95.

(٦٤) أنظر قصة ذلك كاملة في عبد الجليل التميمي ، "من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني ١٥٤١"، المجلة التاريخية المغربية العدد الثالث ،(تونس، كانون الثاني يناير١٩٧٥)نص٣٧-٤٦.

(65) Stanford Show ,op.cit.,p.76.

(٦٦)عبد الجليل التميمي ، "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر الى السلطان سليم " المرجع السابق ، ص١١٦-١١٧.

(٦٧) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، الطبعة الثالثة ، (القاهرة ١٩٦٦)،٩١-٩٢.

(68)Sources Inediles de L`Histoire deMaroc Archives et Bibliotheques D`Espagne ,T.1 Part H. De Casterie,(Paris,1921),p.41.

(٦٩) عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية،(الدار البيضاء ،١٩٧٧) ، ص٥٥؛ أحمد توفيق مدني ، المرجع السابق،ص٢٢٨.

(٧٠) تعني كلمة الانكشارية Janissaries أي الجيش الجديد Yeni Cheri وهي فرق المشاة التركية التي تأسست في زمن مراد الأول بين ١٣٦٢-١٣٨٩ ، عمادها الأطفال الذين كانوا يجمعون من الأقاليم المسيحية مقابل ضريبة الرأس ويخضعون لتربية عسكرية إسلامية صارمة ويمنعون من الزواج وهم مرتبطون بالسلطان دون غيره واستمروا عماد فرق المشاة في الجيش حتى قضى السلطان محمود عليهم في عام ١٨٢٦.ينظر ،

Colin Imber, Th Origin of the Janissaries, In The Ottoman State ,Beginnings and End, Proceedings of a Symposium held at Ahal Al-Bayt Univ. (18-19 Oct.1999) (Amman,2001) p.5-12.

(٧١) نقلاً عن عزيز سامح ألتر ،المرجع السابق،ص١٣٣.

(٧٢) نقلاً عن فاضل مهدي بيات ،الأوضاع الاقتصادية والإدارية في الإيالات العربية في القرن السادس عشر ،قراءة في أفكار المؤرخ العثماني مصطفى نوري باشا، الدولة

العثمانية:بدايات ونهايات ،أوراق ندوة جامعة آل البيت العلمية -١٩/١٠/١٩٩٩،تحرير محمد م. الأرناؤوط وهند أبو الشعر،(عمان ،٢٠٠١)، ص١٣٤.

(٧٣) المرجع نفسه،ص١٣٣-١٣٦.

(٧٤) المرجع نفسه، ص١٣٣.

(٧٥) الدورو هو الليرة الذهبية النمساوية، وتعادل ليرة عثمانية ذهبية تقريباً .

(٧٦) عبد الرحمن محمد الجيلالي ، المرجع السابق ،ج٣ ،ص٢٠-٢٢؛ أرجمند كوران ، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ، ترجمة عبد الجليل التميمي، (تونس،١٩٧٠)،ص١١ .

(٧٧) ف.ب. لوتسكي ، تاريخ ألأقطار العربية الحديث ، ترجمة عفيفة البستاني ، (موسكو ، ١٩٧١) ، ص١٠-١٣ .

(٧٨) نقلاً عن جان كلود زليتنر ، المرجع السابق ،ص٨٠.

(٧٩) جاء في النص الأصلي كلمة الآلهة التي ربما جاءت في النص من قبل المؤلف وليس من كلام خير الدين .

(٨٠) نقلا عن المرجع نفسه ، ص٨١.

(٨١) محمد عبد اللطيف البحراوي ،فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن من البر إلى البحر ،(القاهرة، ١٩٧٩) ،ص١٢٧.

(82) Stanford Show,op.cit.,p.97.

(٨٣) إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، (القاهرة ، ١٣١٢ هـ/ ١٨٩٤م) ، ج١ ، ص٤١٩ ؛ محمد خير فارس، المرجع السابق، ص ٣٣ .

(٨٤) الفونصو روسو ، المصدر السابق ، ص٨٤-٨٥ ؛ محمد خير فارس ، المرجع نفسه،ص٣٤؛ محمد عبد اللطيف البحراوي ،المرجع السابق ،ص١٢٨.

(85) Sources Inedites de L` Hiistoire du Maroc Portugal, TomMMM,Second Parte ,p.640-662.

(86) Ibid., p. 640-646; Sources Indites de L`Histoire de Maroc Espagn Tom M,p.44,83 .

(87)Stanford Show,op.cit.,p.76.

(٨٨) إسماعيل سرهنك ،المصدر السابق، ج١،ص٤٢٠.

(89) Paul Coles , op.cit.,p.93. ; J.H.Elliot.op.cit., p.43.

(٩٠) الفونصو روسو، المصدر السابق ، ص٨٦-٨٩ ؛عزيز سامح التر ،المرجع السابق،ص١١٥-١٢٠ ؛ Paul Coles ,Ibid., p.93.

(٩١) الدوقة :عملة ذهبية بندقية فلورنسية كانت تعادل درهمين عثمانيين كانت شائعة في التبادل في القرن السادس عشر .

(٩٢) الفونصو روسو، المصدر السابق ،ص٩٠-٩١ ؛ عزيز سامح ألتر ، المرجع نفسه ،ص١١٩-١٢٠ ؛ محمد عبد اللطيف البحراوي ، المرجع السابق ،١٣٠ ؛ جان كلود زليتنر ، المرجع السابق ، ١١٨-١١٩.

(٩٣) أحمد توفيق مدني ، المرجع السابق ،ص٢٤١،٢٣٦،٢٢٧-٢٤٢.

(94)J.A.R.Marriott, The Eastern Question ,A historical sudy in European diplomacy ,(Oxford ,1958),p.93.

(٩٥) تعرضت فرنسا لخطر التقسيم عدة مرات في النصف الأول من القرن السادس عشر . ينظر، عبد العزيز محمد الشناوي ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ، ج١ ، ص ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٦، ٣١١ .

(٩٦) المرجع نفسه ،ص٢٩٧.

(97) Kamal Karpat ,The Ottoman Empire and Its Place in World Hitory,(Leiden,1974),p.7-8.

(98)Paul Coles ,op.cit.,p.93-94

عبد العزيز محمد الشناوي ، الدولة العثمانية المفترى عليها ،ج٢ ،ص١٧٠ .

(٩٩) عبد العزيز محمد الشناوي ، الدولة العثمانية المفترى عليها ج٢ ،ص١٦٨-١٦٩.

(100)Stanford Show,op.cit.,p.100 .

(١٠١) محمد فريد ،المرجع السابق ،ص٩٨ .

(102)JohnLynch,Spain under Habsburg Vol. I,(Oxford ,1971),p.96;

محمد خير فارس ،المرجع السابق ،ص٣٦ ؛ عبد العزيز محمد الشناوي ، الدولة العثمانية المفترى عليها،ج٢،ص١٩١.

(103)Sources Indeites L` du Moroc Portugal ,Tom .M ,part 2, Report Ricord et Chantal de L` Veronn- paris 1956,p.560.

(104)Paul Coles ,op.cit.,p. 95 ; Stanford Show ,op.cit., p.102 .

(١٠٥) عبد العزيز محمد الشناوي، أوربا في مطلع العصر الحديث ،ص٣٠٢.

(١٠٦) المرجع نفسه ص،٣٠٣.

(١٠٧) جان كلود زليتنر ، المرجع السابق ، ص١٥١-١٥٤.

(١٠٨)المرجع نفسه،ص١٥٣؛ عزيز سامح ألتر ،المرجع السابق ،ص ١٢٢-١٢٣.

(109)Les Sources Indeites de L` Histtoire Du Moroc Espagne , Tom . .M . , p . 151 - 164.

(110)Les Sources Inedites de L` Histoire Du Moroc Espagne ,Tom. M.,p.202-203 .
(111)Ibid.,p.202-207.

(١١٢) عزيز سامح ألتر ، المرجع السابق ،ص١٨٠.
(١١٣) المرجع نفسه ، ص١٨١-١٨٢ .؛ أنظر كذلك بسام العسيلي ،الجزائر والحملات الصليبية١٥٤٧-١٧٩١ ،(بيروت،١٩٨٣)،٣٥-٣٢.
(114)H. D. De Grammont , Negociation de la Levant ,D.C.,Tom,I,p.624 .
(١١٥) بسام العسيلي ،المرجع السابق ، ص٧٣؛ عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع السابق ،ج٣، ص٨٦-٨٧.
(١١٦) أنظر ،أحمد توفيق مدني ،المرجع السابق،ص٣٤١؛ عزيز سامح الترِ ،المرجع السابق ، ص ١٨٦- ١٩٠؛ إبراهيم شحاته حسن ، أطوار العلاقات المغربية العثمانية :قراءة في تأريخ المغرب عبر خمسة قرون ١٥١٠-١٩٧٤،(الأسكندرية،١٩٨٠،)،ص١٤٧.
(١١٧) عبد الكريم كريم ، المرجع السابق ،ص٨٢ ، عزيز سامح ألتر ، ص ١٩٢ -١٩٢ .
(١١٨) جون رايت ،تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور ،ترجمة عبد الحفيظ الميار وأحمد اليازوري ،(طرابلس،١٩٧٢)،ص٩٠.
(١١٩) نقلاً عن جان كلود زليتتر ، المرجع السابق ،ص٢٨.
(١٢٠) آي دبل يو بوفيل، المرجع السابق ، ص٢٤٧؛ محمود ناجي ، تاريخ طرابلس الغرب ؛ترجمة محمد الأسطى وعبد السلام آدهم ، (طرابلس ،١٩٧٠) ، ص١٤٦.
(١٢١) جان كلود زليتتر ، المرجع السابق ، ص،٢٤ .
(١٢٢) تمتزج بشأن ثراء طرابلس الأسطورة بالخيال ،إذ أورد عدد من المؤرخين عن العياشي،الرحالة المغربي في القرن السابع عشر حكاية مفادها وصول بعض التجار الأوربيين (الإسبان)إلى البر الطرابلسي ، فدعاهم أحد الناس إلى وليمة أقيمت على شرفهم فقدم لهم أصناف الطعام ، ثم جاء تعبيراً عن ثرائه ،بياقوته ودقها دقاً ناعماً وذرها فوق الطعام بدلاً عن الملح أو الفلفل ، ثم جاء بدلاعة(بطيخة) ،إلا إنه لم يجد في بيته ولافي بيت جاره سكيناً لقطعها للدلالة ، إنه على الرغم من هذا الثراء وليس لديهم من السلاح للحفاظ عليه،فكان هؤلاء التجار عيون لبلدانهم لغزو طرابلس ، ينظر ابن غلبون ،التذكار في من سكن طرابلس من الأخيار ،(طرابلس ،١٩٦٧)،ص١٣٦؛أحمد النائب الأنصاري،المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ،(طرابلس، ١٩٦٤)، ص١٩٧

محمود ناجي ،المرجع السابق ،ص١٤٦-١٤٧.

(١٢٣) جان كلود زليتنر ، المرجع السابق ،ص٤٢.

(١٢٤) ينظر تفصيل جلائهم عن رودس في محمد فريد ،المرجع السابق ،ص٨١-٨٢ ؛
Stanford Show ,op.cit., p.88.

(125) Paul Coles ,op.cit.,p.100.

(١٢٦) جون رايت ،المرجع السابق ،٩١ ؛ نجم الدين غالب كليب ،مدينة طرابلس عبر التاريخ ،البعة الثانية،(طرابلس ،١٩٧٨)، ص٩١ .

(١٢٧) ذهب ابن غلبون وأحمد النائب الأنصاري إلى ، أن أهل طرابلس هم من نبه السلطان العثماني إلى أهمية طرابلس وطلبوا مساعدته في تحريرها ،ابن غلبون المصدر السابق ،ص ١٣٧؛ أحمد النائب الأنصاري ،المصدر السابق ،ص٢٠١،١٩٩.

(١٢٨) أحمد النائب الأنصاري ، المصدر السابق ،ص٢٠٠-٢٠١ ؛ جون رايت ، المرجع السابق ،ص ٩١-٩٢؛ن. أ. بروشين ،تأريخ ليبيا في العصر الحديث ، ترجمة عماد حاتم ،(طرابلس ، ١٩٩١)ص١٧؛محمود ناجي ،المرجع السابق ،ص ١٤٨-١٤٩ .

(١٢٩)أتوري روسي ،ليبيا منذ الفتح العربي حتى عام ١٩١١، ترجمة خليفة التليسي،(بيروت،١٩٧٤)،ص١٩٩ .

(١٣٠) الطاهر احمد الزاوي ، في إضافة له في ابن غلبون ،المصدر السابق ،ص١٣٤ ؛جان كلود زليتنر ، المرجع السابق ،١٨٦.

(١٣٠) المرجع نفسه ، ١٨٤- ١٨٦ ؛ نجم الدين غالب كليب ،المرجع السابق ،ص ٩٢ .

(132)Stanford Show,op.cit.,p.106; Paul Coles ,op.cit.,p.95.
الفونصو روسو، المصدر السابق ،ص٩٤-٩٥ ؛

(١٣٣) جون رايت ، المرجع السابق ،ص٩٣ ؛ عزيز سامح ألتر ،المرجع السابق ، ٢٠٩ ؛ ن. ا. بروشين ، المرجع السابق ، ٢٩- ٣٦ ؛ أتوري روسي ، طرابلس تحت حكم الإسبان. ...،ص٨٣ -٨٨ .

(١٣٤) ينظر تفصيل ذلك في الفونصو روسو ، المصدر السابق ،ص٩٥؛ كوستانزيو برنيا المرجع السابق ، ص٧٦.

(١٣٥) أتوري روسي ،طرابلس تحت حكم الأسبان ،ص٨٩-٩١ .

(١٣٦)عزيز سامح ألتر ، المرجع السابق ،ص ٢١٣-٢١٦.

(١٣٧) ن. أ. بروشين ، المرجع السابق ، ص ٣٥ ؛ أتوري روســــــي ،طرابلس تحت حكم

الإسبان . . . ،ص٨٠-٨١ .

(١٣٨)المرجع نفسه ،ص٣٧؛عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع السابق ،ج٣ ، ص٩٦؛ محمد خير فارس ، المرجع السابق ،ص٤٩.

(١٣٩) دفتر المهمات الهمايوني ، نمرة ٥ ، لسنة ٩٧٩(١٥٧١) ص٨٨٩.

(140) H.D.de Grammont,op.cit., Vol. I,p.452 .

(١٤١) دفتر مهمات الهمايوني ، نمرة ٢٤، لعلم ٩٨٢(١٥٧٤) ،ص٧٢ ؛ الفونصو روسو، المصدر السابق ،ص٩٦ .

(١٤٢) دفتر المهمات الهمايوني ، نمرة ٢٤ ،لعام ٩٨٢ (١٥٧٤) ،ص٧٢ ؛ ن.ا.بروشين، المرجع السابق ،٤٠.

(١٤٣) الفونصو روسو ، المصدر السابق ، ص٩٦-٩٨ ؛ أحمد توفيق مدني ،المرجع السابق ، ص ٤٥٥ – ٤٥١ ؛ محمد خير فارس ، المرجع السابق ، ص٥١ .

(144) Paul Coles , op.cit.,p.167.

(١٤٥) فاضل مهدي بيات ، المرجع السابق ،ص ١٣٣-١٣٤ .

(١٤٦)دفتر المهمات الهمايوني رجب ٩٩٤هجرية (١٥٨٦م) ، نمرة ٦١ ، ص ٩ .

(١٤٧) دفتر المهمات الهمايوني ، ذي القعدة ٩٩٥ هجرية (١٥٨٧م) ،نمرة٦١،ص١٤ .

(١٤٨) دفتر المهمات الهمايوني ، ٩٩٨ هجرية(١٥٨٩ م) ،نمرة٦٣،ص١٧٠-١٧٢ ؛ ابن غلبون ، المصدر السابق، ص١٤٥-١٤٦ ؛ محمود ناجي ، المرجع السابق، ص١٥١ .

(١٤٩) دفتر المهمات الهمايوني ، جمادي ألآخرة ٩٩٣ هجرية (١٥٨٥ م) ، نمرة ٥٨،ص٥١؛ دفتر المهمات الهمايوني ، صفر٩٩٦هجرية،(١٥٨٨م) نمرة٦٣،ص١٦٩ ؛ دفتر المهمات الهمايوني ، رمضان ٩٩٧هجرية،(١٥٨٩م) ،نمرة ٦٧ ، ص١٣٤ .

(150) H .C .Armstrong ,Gray Wolf :Mustafa Kemal,(London ,1936),p.12 .

(151)Edson L. Clark, Turkey,(NewYork,1956),p.83 .

(152)Edward Creasy ,op.cit.,p.212 .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً المصادر والمراجع باللغة العربية

١ . دفتر المهمات الهمايوني ،، ترجمها عن التركية محمد الأسطى، ص٨٨٩. نمرة ٥ ، لسنة ٩٧٩(١٥٧١)؛ نمرة ٢٤، لعلم ٩٨٢(١٥٧٤) ،ص٧٢ ؛رجب ٩٩٤هجرية (١٥٨٦م) ،نمرة ٦١، ص ٩ ؛ ٩٩٨ هجرية(١٥٨٩ م) ، نمرة٦٣،ص١٧٠-١٧٢؛ جمادي الآخرة ٩٩٣ هجرية ١٥٨٥

م) ، نمرة ٥٨،ص٥١؛ صفر٩٩٦هجرية،(١٥٨٨م)، نمرة٦٣،ص.١٦٩؛ رمضان ٩٩٧ هجرية ، (١٥٨٩م) ، نمرة ٦٧ ، ص١٣٤.
٢. ألتر ،عزيز سامح ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ،ترجمة محمود على عامر ،(بيروت ،١٩٨٣) .
٣. الأنصاري ،أحمد النائب ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ،(طرابلس، ١٩٦٤).
٤. أوزوتونا ، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية ،ترجمة عدنان محمود سلمان ،(إسطنبول ،١٩٨٨)، ج١.
٥. البحراوي ،محمد عبد اللطيف ، فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن من البر إلى البحر ،(القاهرة، ١٩٧٩).
٦. برنيا ، كوستانزيو ، مدينة طرابلس ١٥١٠-١٨٥٠ ، ترجمة خليفة التليسي ،(مصراتة،١٩٨٥).
٧. بروشين، ن. ، تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، ترجمة عماد غانم ،(طرابلس،١٩٩١).
٨. بروكلمان ، كارل ،تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، الطبعة الحادية عشرة، (بيروت ١٩٨٨).
٩. بشتاوي، عادل سعيد، الأندلسيون المواركة ، (القاهرة،١٩٨٣).
١٠. بيات ،فاضل مهدي ،الأوضاع الاقتصادية والإدارية في الإيالات العربية في القرن السادس عشر ،قراءة في أفكار المؤرخ العثماني مصطفى نوري باشا، الدولة العثمانية: بدايات ونهايات ،أوراق ندوة جامعة آل البيت العلمية -١٩/١٠/١٩٩٩،تحرير محمد م. الأرناؤوط وهند أبو الشعر،(عمان ،٢٠٠١).
١١. التميمي ،عبد الجليل ، "أول رسالة من أهالي الجزائر الى السلطان سليم الأول عام ١٥١٩ "، المجلة التاريخية المغربية، (تونس ، يوليو-١٩٧٦).
١٢. ـــــــــ"من مسلمي غرناطة الى السلطان سليمان القانوني ١٥٤١"، المجلة التاريخية المغربية ، (تونس، يناير١٩٧٥).
١٣. التونسي ، محمد بيرم ، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، (بيروت،؟) ، ج٤.
١٤. الجازوري ، جمال ،"تأملات حول سياسة الإبادة التي اتبعها ملوك الأسبان ضد المورسكيين "،مجلة الجامعي ، العدد١١،(طرابلس،الربيع،٢٠٠٦)
١٥. الجمل ،شوقي عطاالله ، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ،(القاهرة ،١٩٧٢).

١٦. جوليان ، شارل أندري ، تاريخ أفريقيا الشمالية ،تونس الجزائر المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي حتى ١٨٣٠، ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة، (تونس،١٩٧٨)ج٢.
١٧ . الجيلالي ،عبد الرحمن بن محمد ، تاريخ الجزائر الحديث ، الطبعة الرابعة ، (بيروت، ١٩٨٠) ، الجزء الثالث .
١٨. حتاملة، محمد عبده ،التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكيين الكاثوليكيين ١٤٧٤-١٥١٦،(عمان ،١٩٨٠).
١٩. حجي ،محمد ، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ، (الدارالبيضاء،١٩٧٦) ،ج١.
٢٠. حسن، إبراهيم شحاته ، أطوار العلاقات المغربية العثمانية :قراءة في تأريخ المغرب عبر خمسة قرون ١٥١٠-١٩٧٤، (الأسكندرية،١٩٨٠،).
٢١. رايت ، جون ،تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور ،ترجمة عبد الحفيظ الميار وأحمد اليازوري ،(طرابلس،١٩٧٢).
٢٢. روسو ، الفونصو ، الحوليات التونسية ، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي ،(بنغازي ،١٩٩٢).
٢٣. روسي ، أتوري ،طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان القديس يوحنا ،ترجمة خليفة التليسي، (طرابلس،١٩٦٩).
٢٤. ــــــــ ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى عام ١٩١١، ترجمة خليفة التليسي ،(بيروت،١٩٧٤).
٢٥. زليتنر ، جان كلود ،طرابلس ملتقى أوربا وبلدان وسط أفريقيا ١٥٠٠-١٧٩٥،ترجمة جاد الله عزوز الطلحي ،(طرابلس، ٢٠٠١).
٢٦. سرهنك ،إسماعيل، حقائق الأخبار عن دول البحار،(القاهرة،١٣١٢هـ)،ج١.
٢٧. سعد الله ، أبو القاسم ،صورة لمدينة الجزائر في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ، في الدولة العثمانية بدايات ونهايات ،أوراق الندوة العلمية التي عقدت في جامعة آل البيت١٨-١٩/١٠/ ١٩٩٩ ، تحرير محمد أرناؤوط وهند أبو الشعر ،(عمان ،٢٠٠١).
٢٨ .الشناوي ، عبد العزيز محمد ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ،(القاهرة،١٩٨٥)، ج١.
٢٩. ــــــــ ، الدولة العثمانية المفترى عليها ،(القاهرة ،٢٠٠٤)، ج ٢.
٣٠. العسيلي ، بسام ،الجزائر والحملات الصليبية١٥٤٧-١٧٩١ ،(بيروت،١٩٨٣).
٣١. عنان ،محمد عبد الله ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، الطبعة الثالثة ، (القاهرة ،١٩٦٦).

٣٢ . ابن غلبون ،التذكار في من سكن طرابلس من الأخيار ،(طرابلس ،١٩٦٧).
٣٣. فارس ، محمد خير ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ،(بيروت،١٩٧٩).
٣٤. فريد ، محمد ، الدولة العلية العثمانية ،(بيروت،١٩٧٧).
٣٥. فيرو ،شارل ، الحوليات الليبية ،ترجمة محمد عبد الكريم الوافي ، الطبعة الرابعة ،(بنغازي ،١٩٩٨).
٣٦. كريم ،عبد الكريم ،المغرب في عهد الأسرة السعدية،(الدار البيضاء ، ١٩٧٧).
٣٧ . كليب، نجم الدين غالب ،مدينة طرابلس عبر التاريخ ،الطبعة الثانية،(طرابلس ،١٩٧٨).
٣٨ . كوران ، أرجمند ، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ، ترجمة عبد الجليل التميمي، (توقس،١٩٧٠).
٣٩ . لوتسكي ،ل. ب . ، تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ترجمة عفيفة البستاني ،(موسكو،١٩٧١).
٤٠ . مانغروتي ، كاميللو ،العلاقات البحرية بين ليبيا وإيطاليا، ترجمة إبراهيم أحمد المهدوي ،(بنغازي ،١٩٩٢) .
٤١ . مدني، أحمد توفيق ،حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢، الطبعة الثانية (الجزائر،١٩٨٤).
٤٢ . مصطفى ، أحمد عبد الرحيم ، في أصول التاريخ العثماني ،(بيروت،١٩٨٢).
٤٣ . المقرحي ، ميلاد أبو سلامة ،تاريخ أوربا الحديث ١٤٥٣-١٨٤٨،٠، (بنغازي،١٩٩٦).
٤٤. ناجي ، محمود ، تاريخ طرابلس الغرب ؛ترجمة محمد الأسطى وعبد السلام آدهم ، (طرابلس ،١٩٧٠) .
٤٥. الوزان ،الحسن بن محمد (ليو الأفريقي) وصف أفريقيا، (الرباط،١٩٨٢)،ج٢.
٤٦ . اليوسف ،عبد القادر أحمد ، علاقات بين الغرب والشرق بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، (بيروت،١٩٦٩).

ثانياً ـ المصادر والمراجع الأجنبية

47. De Grammont ,H. D., Negociation de la Levant ,D.C.,Tom,I,
48.Sources Inediles de L'Histoire deMaroc Archives et Bibliotheques D`Espagne ,T.1 Part H. De Casterie,(Paris,1921),p.41.
49.Sources Indites de L' Histoire du Moroc Espagne,(Paris,1948),T.MP.83.
50. Sources Indites de L'Histoire de Maroc Espagn Tom M,p.44,83 .

51.Sources Inedites de L' Hiistoire de Maroc Portugal,Tom MMM, second part ,p.640-662.
52. Sources Indeites L' du Moroc Portugal ,Tom .M ,part 2, Report Ricord et Chantal de L' Veronn- Paris1956,p.560.
53.Armstrong , H .C ., Gray Wolf :Mustafa Kemal,(London ,1936).
54. Cahen, Cloude ,Pre-Ottoman Turkey,(London,1978),p.248-260.
54. Clark, Edson L., Turkey,(NewYork,1956).
55. Coles , PauL, The Ottoman Impact on Europe ,(London,1968).
56. Creasy, Edward S, History of Ottoman Turks,(Beirut,1961).
57. Elliot ,Ch. ,Turkey in Europe,(London,1965).
58. Elliot, J.H., Imperial Spain 1469-1716,(London,1981
58. Gomez, J.M., Aconise History of Spain ,(Madrid,1966).
57. Grant ,A.J., A history of Europe From 1494 to 1610,(london,1968.
58. Imber,Colin, Th Origin of the Janissaries, In The Ottoman State ,Beginnings and End Proceedings of a Symposium held at Ahal Al-Bayt Univ.(18-19 Oct.1999),(Amman, 2001).
59. Inalcik ,Halil, The Ottoman Empire,Conquest Organization and Economy ,Collected Studies, (London,1978).
60. Karpat , Kamal ,The Ottoman Empire and Its Place in World History,(Leiden,1974)60.
61. Lane-Poole ,Stanly, Turkey ,(Beirt,1966).
62.Livermore ,H.V. ,Anew History of Portugal, (London,1966).
63. Lynch ,John ,Spain under the Habisburg, Vol. II ,(Oxford,1967) .
64. Marriot ,J.A.R., The Eastern Question An Historical Study in European Diplomacy, (Oxford,1969).
65.O`Sullivan ,Dan, The Age of Discovery 1400-1500,(New York,1976),
66. Panikar, K.M. ,Asia and Western Dominance, (london,1953).
67. Show, Stanford, History of Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol.I, The Empire of Ghazes, (Cambridge,1977).